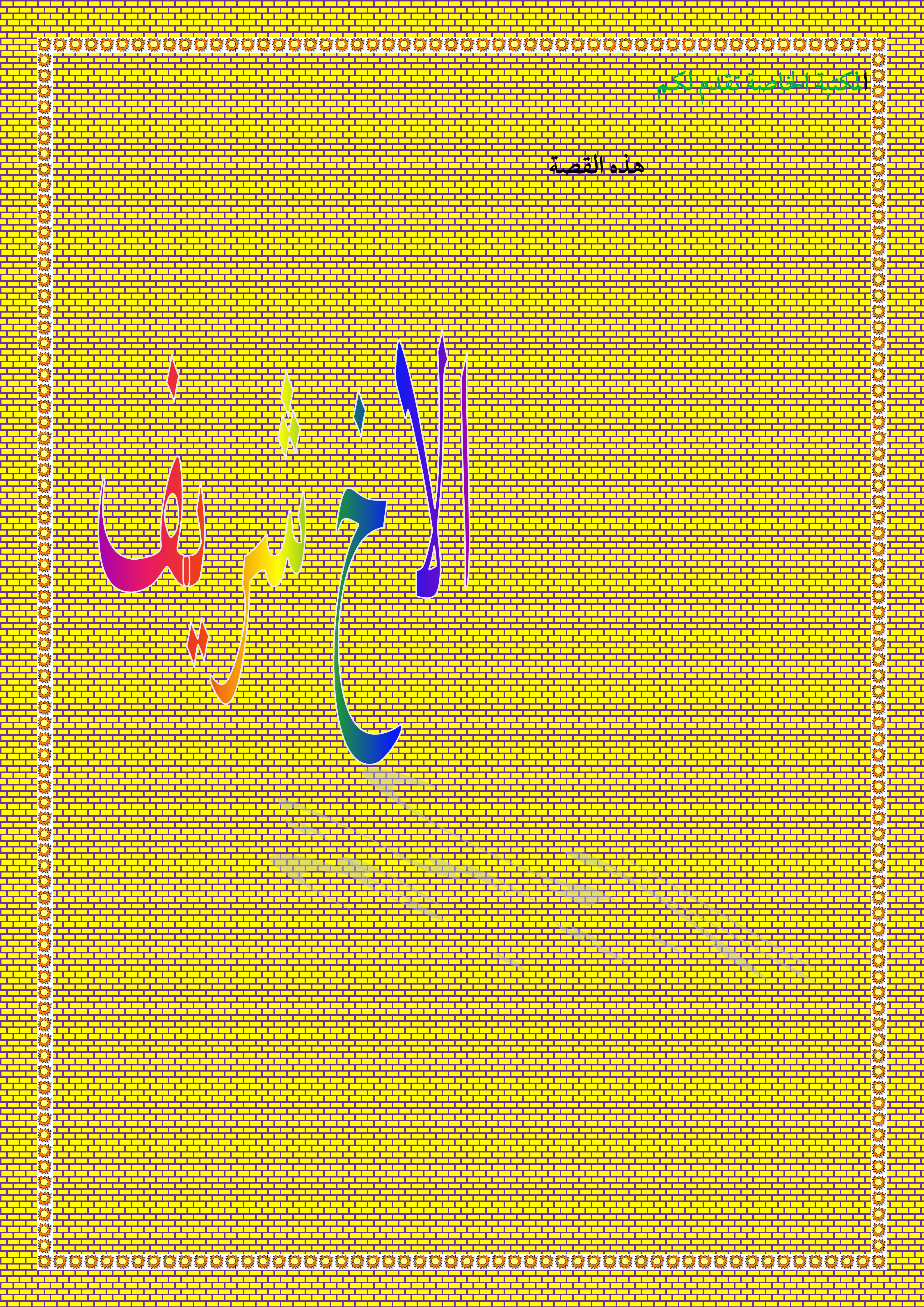
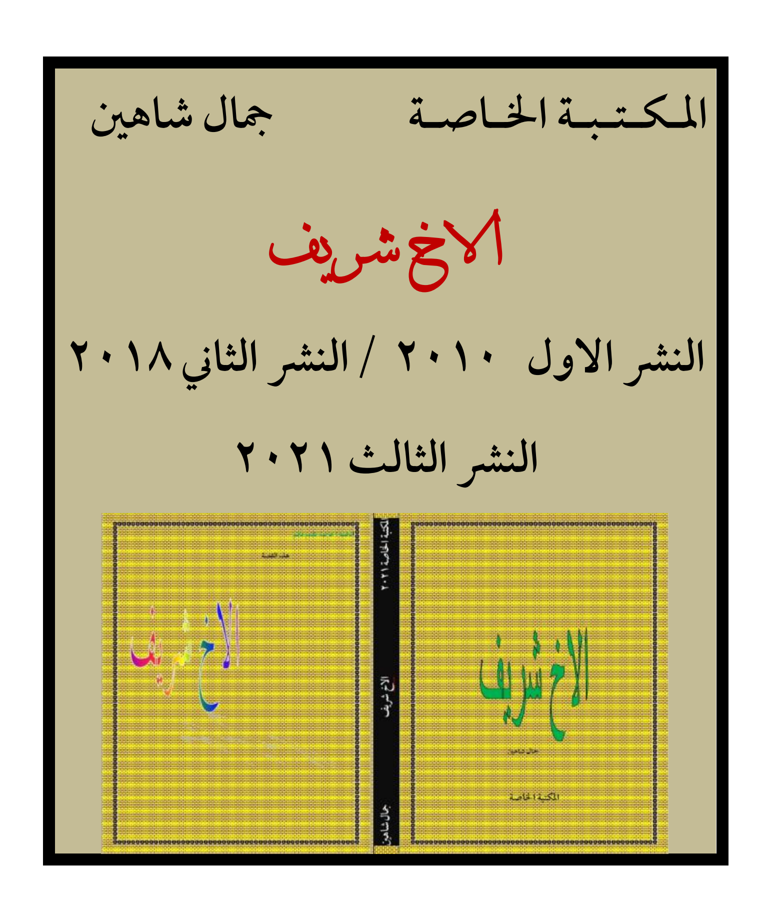

المكتبة الخاصة تقدم لكم
هذه القصة

بسم الله الرحمن الرحيم



حلت بالأسرة الصغيرة نكبة من نكبات الدنيا

المعيل أصيب بالشلل

فهجر الابن الأكبر المدرسة

من أجل أن يعيل الأسرة من فقرها

وضيّقا من أموال الزكاة والصدقات والجمعيات

الانسانية التي أعانت العائلة في مصيبتها

فأمسى حاقدا على شقيقه الموفق

ومالكا لملهى ليلي

ذاك أخي قسيم

صديقكم شريف ياسر


الأخ شريف
جمال شاهين

١

البركة مدينة تعتبر محافظة حسب الترتيب الإداري في البلد ، فهي واسعة المساحة، أحياؤها متعددة ، وهي متصلة بعاصمة القطر ، لا تفصلها عنها مدينة أخرى ، ولكن الحداثة والتطور في العاصمة " شين " أكثر وأسرع .

بدأت الرواية في شارع عمارة ، وهو شارع معروف مشهور في مدينة البركة ، ربما هو أشهر شارع فيها، وهو شارع الفقراء ، وهذا الاسم غالب عليه أكثر من الاسم الرسمي ، ومع شهرته في مدينة البركة لا يخلو من بضع عمارات ضخمة ، وأكثر ساكنيه يملكون قطعة واحدة أو شقة تتكون من حجرتين صغيرتين ومطبخ صغير ومرحاض ، والقليل كما قيل يملك حجرة ثالثة أو صالون ، وأغلب سكانه من العمال حتى اشتهر بين الأحياء بحي العمال ، ويمتد هذا الشارع لثلاثة أو أربعة كيلو مترات ، والبيوت على طرفي الشارع ، وفي منزل في وسطه بدأت قصتنا ، في بيت السيد الفاضل ياسر الكُمن .

ياسر عامل بسيط عامل بناء ، يعمل مع متعهدي ومقاولي الإنشاء والبناء ، يحمل الرمل والطوب والإسمنت وحديد التسليح ، ويأخذ أجرته عادة باليوم "عامل مياومة" هكذا يقال ، اليوم الذي يشتغل فيه يسجل له ، ويقبض أجرته نهاية الأسبوع ، أو نهاية الشهر حسب سياسة مقاول البناء ، فحياته المعيشية يوم بيوم ، اليوم الذي يقعد فيه عن العمل لا يأخذ عليه أجرة ، سواء كان الترك بعذر كمرض وتعب أم بغير عذر كمطر وبرد أو قلة شغل ، والرجل اعتاد على هذا النظام وهذه الحياة ، ورضي بما قسم له ، وتكيفت حياته على هذا الترتيب كما يقال ، فاليوم الذي يعمل فيه يوسع على نفسه والعيال ، واليوم الذي لا عمل فيه يقل المصروف والقوت . ومن طبيعة وقانون هذا الشغل التنقل بين المقاولين والمتعهدين ، وهو تارة يعمل مع المقاول فلان ، وتارة أخرى مع المقاول علان ، مرة مع حمدان ، ومرة مع زكي أبو سلمان. فهو يؤجر نفسه لساعات نهارية ببضعة قروش ، وربما تصل إلى دينار حسب سخاء وكرم صاحب العمل وحاجة العمل .

ياسر هذا متزوج منذ سنوات ، وكان سعيدا بزوجه حسنة، وكان يراها الدنيا كاملة ، وكانت هي راضية بخط سير حياتها ، فهي عندما تزوجته كانت تعلم مهنته أو وظيفته في هذه الدنيا ، وهي لم تكن ابنة أسرة ثرية ذاقت حلاوة الغنى وتزوجت فقيرا ، إنما انتقلت من أسرة مستورة إلى رجل من أسرة مستورة ، من نفس الطبقة الكادحة ، وعلى مستوى اجتماعي واحد ، فلم تكن تحلم بالعيش في قصر أو شقة واسعة ، لم تشتكِ أمام ياسر يوما من فقره وحاله ، رغم شظف العيش هذا كانا سعيدين متحابين ، ورغم منغصات الدنيا الكثيرة كانا راضيين مسرورين ، ورغم موت الكثير من مواليدهم كانا في حبور وسعادة .

يغادر الزوج البيت مبكرا حيث يعمل في ذلك النهار الذي بدأت فيه مأساة ياسر، ولما ينطلق الشابان ولدا ياسر وحسنة للمدرسة تبدأ حسنة بترتيب وتنظيف البيت ، وأحيانا تبدأ بترتيب الفراش واللحف بداية ، وأحيانا تبدأ بغسل الأواني والأطباق ، ثم تعود لترتيب غرف النوم .

خرج قسيم ابن الثالثة عشرة ربيعا إلى المدرسة ، ومعه شريف الذي يصغره بعام واحد ، شريف ياسر في الصف السادس الابتدائي ، وأخوه في الصف الأول الإعدادي ، كان شريف أذكى من قسيم في المدرسة ، وعندما بدأت هذه القصة كانت المدارس تكاد أن تغلق أبوابها .

حسنة عبد الحميد أم قسيم ودعت ولديها الذاهبين للمدرسة ، وأغلقت الباب خلفهما ، ودعت لهما في سرها ، ورتبت البيت الصغير ، وكنست الغرفتين ، ودخلت المطبخ الصغير لجلي الصحون وأدوات طعام الفطور من إبريق الشاي والأكواب .

وبينما هي تستمع للراديو يدندن في أغاني الصباح كالمعتاد طرق الباب بقوة ، فخفضت صوت المذياع ، فسمعت الطرق ثانية ، فتأكد لها أن الطرق على بابها ، وليس على باب جيرانها .. فتركت ما في يديها ، وأغلقت صنبور الماء " حنفية الماء " ..ولابد أنها بينها وبين نفسها تقول " من يطرق عليّ الباب ؟! فسمعت رجلا يطرق وينادي : يا أم قسيم ! .. يا أم قسيم !.. أنا سلمان .

شقت الباب وأخرجت رأسها ، وقد اضطرب قلبها فجأة ، فسلمان زميل زوجها في العمل

وابن شارعها فقالت : وعليكم السلام .. ما هناك يا أبا أحمد ؟!

– آسف لإزعاجك يا أم قسيم .. فالأخ ياسر وقع عليه حجر بناء أثناء الشغل ، ونقل للمستشفى .

فصاحت برعب : مات ؟!

– لأ ، يا أم قسيم ، لكنه مصاب ونقل للمستشفى ، وإذا أحببت أن آخذك إلى هناك .. فقد طلب مني المعلم علي ناشب أن أخبرك وأساعدك بالذهاب للمستشفى .

– حسنا ، انتظر يا أبا أحمد حتى ألبس ثيابي .



كان ياسر وسلمان يعملان مع المتعهد أو المعلم علي ناشب في بناء البيوت والعمارات كعمال يرفعون المواد من تراب وحديد وأسمنت وخلط مواد الإنشاء .. ومن ضمن عملهم حمل حجارة البناء ومناولتها للبنائين .. وكان ذلك الصباح يعمل الرجل مع أحد معلمي البناء فيناوله أحجار البناء والطين المخلوط المجبول .. وأثناء رفعه لحجر بناء مناولا له لمعلم البناء الذي يقف على سقالة بناء سقط عليه ، ربما ظن أو توهم أن الرجل البنّاء تناوله منه ، فوقع ياسر على الأرض وهو يصرخ من الألم ..وكانت ضربة الحجر شديدة على ظهره ، فأصيب عموده الفقري من الحجر ، ومن وقوعه على الأرض على حجر آخر ، فهرع العمال وحملوه للمستشفى .. وقضى الرجل أكثر من شهر في المستشفى ، ولما أخرج كان معطلا ومشلولا شللا نصفيا ، فعاد للبيت كئيبا حزينا ربما يائسا بائسا .. فهو لم يوفر قرشا لمثل هذا الحال ، لم يوفر قرشه الأبيض ليومه الأسود كما يقول أهل التوفير ، وربما لم يفكر يوما أن يصاب هو ويتعطل عن العمل ، رغم ما يحدث باستمرار من أحداث وإصابات للعمال .. فما كان يقبضه من أجرة ينفقه أولا بأول ، وأيام قلة عمله لا يشتري سوى دخانه مما ادخره أو زاد عن

مصروف البيت .

كانت صورة المستقبل أمامه وأمام الأسرة قاسية وسوداء قاتمة ، وأهله لم يكونوا أحسن حالا منه .. فقبل راضيا مستسلما ليد العون التي مدت إليه من الجمعيات الخيرية ، ومن صناديق الزكاة المنتشرة في طول البلاد وعرضها .. وأصبح الرجل عالة على المجتمع والأمة .. وكان علي ناشب قد مد له يد العون في أول الحادث ، وتكفل بعلاجه ومساعدة الأسرة بالأرز والسكر والشاي والفاكهة والطحين، ثم توقف عن ذلك بعد حين

٢

شعرت وأدركت الأسرة بالوضع الصعب الذي عصف بها ، فالمريض يحتاج لعلاج مستمر ومتابعة دائمة، والبيت يحتاج لمصروف ونفقات ، فكانت الأسرة تجاهد للحياة والعيش ، نجح شريف في فصله الدراسي وترفع للصف التالي ، أما قسيم فلم يوفق في فصله فعليه أن يعيد الصف مرة أخرى ، فأصبح الأخوان في مستوى دراسي واحد ، فكان قسيم يتذمر من البقاء في المدرسة ، ويظهر امتعاضه من التعليم ، ويضغط على الأسرة لترك المدرسة وتعلم حرفة ، ويعد الأسرة بالعمل والمساعدة في نفقات البيت ، ويدعي أن مساعدات الجمعيات لا تكفي ، وأنه يضيع الأيام هدرا ، وأن مصيره لسوق العمل ، فتسوق له الأم الأمية فضائل التعليم والحصول على شهادة علمية .. والمستقبل الزاهر والحياة الساكنة والوظيفة اللائقة أمام الناس والمجتمع .. وهو يرد عليها بحمية بأن الشهادات ليست ذات أهمية، والكثير من الناس سعداء بالمال والسيارات وليس معهم شهادات ، ويذكر لها بعض الأسماء اللامعة في المدينة أو في التاريخ .. ثم يعود ليبين لها أن وضعهم سيء ويحتاج لمزيد من المال والدخل .. وأن شريفا أذكى وأشطر منه ، وتدريس واحد في الجامعة ليس كتدريس اثنين .. وأحيانا يظهر لهم عجزه عن متابعة الدراسة والاستذكار والحفظ .. وعمله في مهنة تدر عليه بعض المال تخفف من أعباء الأسرة .. وكان يرى بحسه أن هذه النقطة ستدفعهم لقبول تركه المدرسة .. وكان عندما يضيق به الكلام والحال يصور لهم بشاعة أخذ أموال الجمعيات ، وأنها نوع من التسول

والشحذة ..

ولما وصل شريف للصف التاسع " الثالث الإعدادي " استسلمت الأسرة لضعف قسيم ، وأنه لن يتقدم في الدراسة ، وربما مكانه المناسب سوق الحرف المبكر ، وقد تعلم خلال هذه السنوات شرب السجائر كما علمت الأسرة ، ولم يعد له قدرة على البقاء في المدرسة .. وعلمت الأم أنه يسرق بعض المال الذي تخفيه، وتدخره لأيام الشدة الأكثر ألما وضيقا .. وعلموا أنه يذهب للسينما .. وكان يقسم لها ـ لأمه ـ آلاف الأيمان بأنه لم يسرق ، ولم يذهب إلى السينما .. فرأوا أن يعمل ليعيل نفسه على الأقل ، وصار أملهم الكبير بنجاح شريف الابن المؤدب العاقل .. وأن شريفا كما ترى أمه قد رسم لنفسه هدفا كبيرا .. وأنه ساع بقوة للوصول للثانوية العامة والنجاح بمشيئة الله سبحانه ، وأنه يسعى بصبر لنشلهم من الفقر والمسغبة .. سمح الوالدان لقسيم بالعمل ، وخرج من المدرسة ؛ كأنه حقق هدفا عظيما ،لا مذاكرة ولا حفظ ، ولا عتاب مدير أو أستاذ .

فقسيم كان يرى أن إخراج الأسرة من الفاقة والحاجة بالمهنة والحرفة التي لا تحتاج لشهادة ودراسة، وأما شريف فكان يرى أن الشهادة المفتاح الأول لمساعدة الأسرة ، وتغيير الوضع الماثل أمام عينيه .

قسيم يرى أن السنوات تضيع في المدرسة دون فائدة ؛ لأنه لا يحب المدرسة ، يدرس الشعبة مرتين لينجح تلقائيا دون نجاح حقيقي ، فلما نجح شريف في الثالث الإعدادي انصرف قسيم للعمل الحر كما يقول ، وكان خلال عطل المدارس في فصول الصيف الماضية قد اشتغل في العمل الحر ، مرة مع كهربائي (محترف تركيب وتمديد مواسير وأسلاك الكهرباء المنزلية) ، ومرة مع ما يسمونه السباك (مواسرجي) ومرة مع العمال في تحميل أو تفريغ سيارات الخضار الكبيرة كالبرادات والشاحنات .. ولكن بعد رسوبه المدرسي الأخير ، والموافقة الأسرية على تركه ساحات التعليم .. لم يبق أمامه إلا العمل والثبات على حرفة واحدة .. فاختار العمل مع عمال تركيب المواسير وما يسمى بالتدفئة المركزية .. وبعد شهور يسيرة انتقل للعمل مع بليط

ولما وصل شريف لامتحان التوجيهي .. كان قسيم قد اشتغل في ما يزيد عن خمس مهن أو حرف .. ومن ناحية مساعدة الأسرة ـ كما زعم ـ لم تستفد الأسرة من عمله الشيء الكثير .. فما يقبضه ينفقه على ملذاته ، وأحيانا بعد شجار يرمي دينارا على أمه وهو غاضب .. ولم يعد يعلق يوما على أموال الإحسان التي تنفق على البيت كما كان يعلق عليها قديما.. بل كان يأكل ويشرب من أموال الإحسان والجمعيات ؛ كأن لم يجعلها دافعا لهجره المدرسة .. تناسى الغيرة والحمية التي كانت تجتاحه عندما كان يرى رجال الجمعيات والمحسنين يدخلون على البيت بالمساعدات والصدقات .. وربما لو صادفته اليوم يصاب بفرح وسرور ، ويرى أنهم أزاحوا عن كاهله عبئا كبيرا ؛ كأنه الذي ينفق على الأسرة الجريحة ، وأن الأسرة ما زالت تحيا لم تهلك تجاوز سنه التاسعة عشرة وهو ما زال لم يحترف أي مهنة بعد .. يتنقل هنا وهناك .. لم تلصق به مهنة يشتهر بها بين الصناع .



كانت حسنة في جوف الليل وهي تقف بين يدي الرحمن تبكي لأجله وعلى خيبته، وتدعو الله مخلصة أن يوفق ابنها شريفا وألا يخيب أملها فيه ، كما خاب في ابنها الكبير الذي لا يبالي بوضع أبيه ، بل تراه في بعض الأيام لا يتحدث مع والده أو يسلم عليه ، يخرج صباحا غير مكترث، ويعود في آخر الليل بدون أن يسألها عنه أو يسلم عليه.

كان شريف يدرك ويعي الأمل المعقود عليه نحو أسرته ، ويشاهد خيبة الأسرة بقسيم ، وهو لم يفاجأ بذلك ، فهو يعرف قسيما خير المعرفة ، يعرف أنانيته وطمعه وحبه لذاته ، وضعف شعوره وإحساسه بالآخرين ، وضعف تحمله للمسئولية ، فهو يستعجل السنين لينتشل الأسرة من الفقر ، ومن هذه الحي المظلم ، وهو اليوم يجاهد ويقرأ ويحفظ لإنهاء الثانوية العامة بسلام .

ولكن قبل أن تأتي الامتحانات حدث أمر مهول بالنسبة لهم ، فبينما الأسرة ذات نهار تجلس حول مدفأة لتخفف للبرد المخيم على الناحية طرق الباب ؛ فإذا هو رجل شرطة يسأل عن قسيم ، وقد تبين لهم أنه متهم بالمشاركة مع بعض فتيان الحي بسرقة دكان بقالة من أحد الأسواق ، ولما علم صاحب الدكان حال أبي قسيم وشلله وفقره ، وشاهد بكاء الأم وتوسلها تسامح معهم ، وأخلت الشرطة سبيله ، ولم ترفع القضية للقضاء .

وغضب الأب على الابن وصاح في وجهه وشتمه وحقره ، وكذلك شريف جرحه وذكره بأقواله وشهامته عندما كان يرغب بترك المدرسة من أجل مساعدتهم .. واحتجاجه على أموال الصدقات .. فتظاهر بالغضب والنقمة ، وقابل العتاب بهجر البيت غاضبا على تجريحهم وناقما عليهم صراخهم وتحقيرهم .. وهذه ليست أول مرة يهجر فيها البيت .. فمنذ أن كبر سنا واشتغل كان يترك البيت أياما زاعما أنه في ورشة بعيدة أو أي حجة أخرى.. ولما يجوع وتذهب الأموال يعود للبيت طالبا العفو والطعام .. وبعد هذه الحادثة عاد للبيت ، وطلب من أمه أن تعينه ببعض مال الصدقة ليتعلم قيادة السيارة .. وأمام ضغطه وصراخه وأنه ابن العائلة وأملها بأن ينصلح حاله .. وخوفها من تهديده المستمر بترك البيت والهروب للعاصمة شين .. وعلينا ألا ننسى حنان الأم أيضا .. ذهبت معه لأحد المدربين ، واطمأنت أن المال وصل للمدرب ، ووعدها الرجل بتعليمه السواقة .. وتأكدت أن المال لن ينفق على الدخان والسينما والملاهي دفعت الدفعة الأولى .

وقد صدق قسيم معها هذه المرة ، وحصل على رخصة القيادة المناسبة ، وأنهى الأخ شريف الثانوية العامة بنجاح وبنتيجة جيدة للغاية أهلته ليختار من الكليات الجامعية ما يشاء ؛ ولكن الشاب أمام الحاجة ووضع الأسرة اختار الالتحاق بالجيش والكليات العسكرية، وخاصة الهندسة العسكرية ، وبمساعدة بعض الأكابر تيسر له ذلك ، ليصبح ضابطا ومهندسا في نفس الآن .

وعادة طلاب الكليات العسكرية يتكفل الجيش والقوات المسلحة بتعليمهم وتدريسهم ،

وبعد ذلك يلتحقون للخدمة في صفوف ووحدات الجيش في طول البلاد وعرضها ، وبذلك لم يكلف والديه درهما واحدا ينفق عليه في أثناء الدراسة ، بل يأخذ راتبا وإن كان صغيرا يساعد به نفسه أولا ثم الأسرة .. والأهم من ذلك أنه يحصل لوالديه علاجا طبيا مجانا على حساب الخدمات الطبية للجيش ، فكان يرى أن ذلك توفيق من الله عز وجل .

وكان ذلك كله مفاجئا للأسرة ، فهم لم يحلموا يوما أن يلتحق ولد لهم بالقوات المسلحة ، فهم ربما كانوا يعتقدون أن الجيش لأبناء الذوات أو العائلات الخاصة ، وشريف نفسه لم يحدثهم يوما عن هذا الحلم والهدف ؛ لأنه ربما كان مثلهم يرى أن العمل في الجيش يحتاج لميزات خاصة ، ولما استقر الشاب في الكلية العسكرية أو الجامعة العسكرية ، وأصدرت بطاقة العلاج الخاصة بوالده عرضه على أطباء الجيش من علماء وأخصائيين ، ولكن لطول فترة الرقود على الفراش ، وضعف العناية خلال السنوات الماضيات ، لم يكن هناك أمل كبير في شفائه من الشلل ، فقد ضعف الجسم عن المقاومة .. وأصبح يأخذ العلاجات الثمينة من صيدليات الجيش .. ورفعت الجمعيات الأهلية اسم العائلة من المساعدات والإحسان بناء على رغبة شريف ، وأعلمهم بتحسن الحال ، وأن غيرهم اليوم من الأسر أبدى وأولى منهم ، فأثنوا عليه شكرا ، وتنموا له التوفيق .

واحتج واعترض قسيم على تصرف أخيه شريف ، ومنعه من وصول المعونة إليهم ، وأمام الواقع الجديد من تصدر شريف للقيادة في البيت ، وجه الشاب قسيم وجه نحو العاصمة ، وادعى أن الحياة في مدينة البركة أصبحت سيئة ، وأن البيت صار جحيما ، ولما استقر في المدينة الجديدة استطاع العمل على سيارة نقل ركاب على أحد الخطوط الداخلية .

٣

الزمن يمشي ويسير قدما لا يتأثر بحادث جرى هنا وآخر هناك ، فهو يمضي إلى ما قدر له ، لا يوقفه مولد شخص ولا وفاته ، فكل ميسر لما خلق له ، فنحن نكبر ونزداد عمرا وسوف نهرم ونموت ، وما الأيام إلا أعمار الناس ، هذا يضحك والثاني يبكي ، موت وحياة ، ولكن السعيد من وعظ بغيره في دنيانا هذه .

الفقر معروف لكل الشعوب ، ولا يخلو منه مجتمع ، والناس يتفاوتون في الفقر والغنى والصحة والمرض. فقسيم ياسر منذ فشل في المدرسة وهو يصارع الحياة ، ولا يعرف كيف يستقر على هدف وغاية.. ترك المجاهدة في المدرسة ، ونزل لسوق العمل مدعيا أنه يفعل ذلك من أجل الأسرة الصغيرة، وليكف عنهم أخذ أموال الصدقة ، وحتى لا تبقى يدهم ممدودة كما كان يزعم لأمه .. وهذا مقصد نبيل وشريف ويشكر المرء عليه.

ولكن الشاب احترف أو قل عمل في أكثر من مهنة دون فائدة .. حتى سئم كل الأعمال.. وكبر الشاب ودخل العقد الثالث دون نتيجة مهمة .. وتعلم السواقة من أموال الإحسان التي كان يتظاهر بكرهها ، ويحقد على المحسنين ويقذفهم بشتى السباب .. حقق رخصة القيادة ولكنه لم يفلح بالثبات عند شخص يعمل عنده .. فتقدم لرخصة أعلى درجة تخوله العمل في قيادة مركبات الركاب .. فاستغل تدخل أخيه بوقف المعونة الخيرية عن الأسرة ليهرب أو يهاجر إلى العاصمة .. وكان كل هذه السنوات التي قضاها قبل سفره يتذمر من شظف العيش وضيق ذات اليد.. ويحلم الأحلام الخيالية من بناء شركات وتعهدات .. ولم تخلُ أيامه تلك من عمليات احتيال ونصب.. فالأخلاق الحميدة والطيبة لم يكن لها قيمة وأهمية عنده .. المتعة والراحة أجمل الأشياء في الحياة.. المبادئ والمثل شعارات فقط .. ولا أهمية لها إلا إذا وافقت هواه ومصلحته فحسب .

كان يتردد على مدينة البركة بين الفترة والأخرى ربما في الشهر مرة ، وأحيانا في عدد من الشهور مرة .. ولما تخرج أخوه مهندسا وضابطا ضاقت به الدنيا وحسده، وتمنى ولو أنه ظل

يكافح على مقاعد المدرسة .. ومرات يظهر اللوم على أمه التي تراخت وسمحت له بترك الدراسة .. ولا أحد يعقب على كلامه .. كان حقده على شريف واضحا للعيان ، وكان يزعم أمام أقرانه أنه هو الذي شارك في تعليم شريف مع إدراكه أن كل الناس يعرفون أن الحكومة هي التي علمت شريفا .. فلذلك يصمتون ولا يردون عليه ، وإذا تجاهل أحد هذه المعلومة وناقشه هذا الادعاء صاح : أنا لا أقصد فلوس المحاضرات والتدريب .. أقصد المصـروف وشراء الكتب والملابس المدنية. فيهز السامع رأسه ويلزم الصمت من الحديث مع مدع وأحمق تخرج شريف ياسر مهندسا ، وتعين ضابطا في قوات الهندسة العسكرية، فقال له والده : الآن يا شريف علينا أن نسعى لتزويج أخيك ؛ لعله يستقر ويعرف المسؤولية .

تدخلت الأم وقالت: أنا أرى الأفضل أن نبني بيتا يليق بالمهندس شريف الضابط .. ويكون هذا البيت هنا لقسيم .

قال الأب مبررا غايته مما اقترح : إن سيرة الولد سيئة لا تعجبني .. وعجزي لم يساعدني على تقويمه وردعه عن فلتانه .. عندما ألتقي ببعض أقاربي وإخواني أسمع عنه كلاما رديئا ومخزيا يا أم قسيم .. وأعلم المرار الذي في حلقك .. فاليوم نحن نعتمد على شريف بعد اعتمادنا الأول والآخر على الله .

شريف يعرف الكثير من مفاسد أخيه وشروره ، فلزم الصمت وترك الحوار والجدل بين الوالدين ، وفي نهاية الجلسة قال شريف : سنفعل كل شيء إن شاء الله .. سنشتري قطعة أرض صغيرة ، وعندما نبدأ البناء ويجهز الطابق الأول نكون خلال ذلك الوقت قد خطبنا لقسيم ..ولما نرحل يتزوج قسيم بإذن الله .. لعل أحواله تتحسن ويعود للسمعة الطيبة .. ويهجر أصحاب وجلساء السوء .

قال ياسر : بارك الله فيك يا ولدي! .. أنت مفخرة لنا .. نعم الابن يا شريف.. لولا همتك وأخلاقك لمت كمدا من سيرة أخيك السيئة .. استغل عجزي للعيش بلا حياء ولا أخلاق .

وأثنت الأم بدورها على ولدها ، وحثته على الرضا والصبر وتحمل مساوئ أخيه وقصصه ،

فضحك شريف وقال: لي سنون أسمع وأتحمل .. ولا أتدخل في حياته الخاصة إلا ناصحا مع أن الإساءة تلحق بنا جميعا ولا تصيبه وحده .

٤

قسيم ابن الربع قرن الممتلئ البدن المتوسط الطول كان مسكنه غرفة صغيرة في أسفل بناية في وسط العاصمة في حي قديم اسمه " حي السماعة "، ومسكنه لا يختلف عن مسكن الأسرة في بلدة البركة شارع عمارة .

ربما تجد منازل الكلاب عند بعض الناس أفضل من غرفته وملاحقها ، ووطد نفسه في أول الرحيل أن يعود لزيارة الأسرة في نهاية الأسبوع ليلة الجمعة ، فالعمل ينشط خلال أيام الأسبوع ، والأهل قد ملوا من إصلاحه كما يبدو فتركوه على هواه ، فكان يستقبل كضيف ويقدم له الطعام والفراش، ولا يطلب منه مالا للمشاركة في مصروف العائلة، لقد كفاهم الله ﷻ المئونة براتب شريف ، وهو لم يقدم من نفسه شيئا للبيت ، وإنما في بعض الأحيان يلتقط بعض الفواكه التي تباع على أرصفة الطريق بين المدينتين ، وكان يتضايق بشدة من أي نصح وإرشاد يقدم إليه من قبل الوالدين ، وعندما يطلبان منه أن يحافظ على بعض ماله ويدخر منه للزواج وبناء أسرة ، فيدعي أنه قد بلغ سن الرشد والعقل ، ويعرف مصلحته ، وهدفه المنشود ، ويعرف أين المنفعة ؟ فلا داعي للنصح والتوجيه ، ومرات يتذمر من الشغل وقلة المال والعطل لتصليح السيارة ، وعندما تنصحه أمه بالصلاة والتوبة يغضب ويبين لهم أن هذه عادات قديمة ، ولم يعد أحد يصلي إلا أمه ، وعلى الإنسان أن يشبع شهواته ورغباته ، وأن الدين للعجائز فحسب ، وربما سمع كلاما قاسيا جارحا من أبيه ، ولائما لأمه في فشلها في تقويمه ، فتأخذ الأم بالبكاء بكاء مرا ؛ ولكنه لا يؤثر في الشاب يوما بل يتظاهر بالغضب والسخط من زيارتهم والجلوس معهم ويغادرهم غير آسف ، ولا يعود إليهم إلا بعد شهر ، وربما أكثر مبديا احتجاجه وعدم رغبته بسماع مثل هذه المقالات .

والواقع أنه أخذ يتعرف على أناس آخرين، وتتسع دائرة معارفه في العاصمة شين، ويجد مكانا

للتسلية والنزهات والمزيد من قضاء الشهوات مع أصدقاء وجلساء اللهو والخمر والقمار .
وهم في أول الأمر كانوا يقلقون على غيبته ، ويسألون أقربائهم الذين يعملون في العاصمة عنه ومع الوقت وبحكم العادة قلّ سؤلهم وتتبعهم لحال ابنهم . وبينما الوالدان يخططان لمستقبل وأحلام العائلة بعد تخرج شريف كما ذكرنا سابقا من الكلية العسكرية قسم الهندسة ،وأصبح ضابطا بنجمتين على كتفه أو ما يطلق عليه عسكريا " ملازم أول "، رن جرس الهاتف في المنزل – الهاتف الذي ركبته الدولة في بيت السيد ياسر بعد التحاق الشاب بالوحدات العسكرية المحاربة ، فأي ضابط عسكري يركب له جهاز هاتف ليتمكنوا من الاتصال به في أي وقت يحتاجونه فيه ؛ وليكون هو أيضا على اتصال مع أسرته – وكالعادة الجديدة قامت الأم حسنة لترد على الهاتف ، فسمعت صوتا متسائلا : أهذا بيت أبي قسيم ؟

ـ نعم !

ـ أنا صديق قسيم في العمل .. نعمل على نفس خط السير ..فالأخ قسيم تشاجر مع ناس .. وضربوه بسكين وهو في المستشفى

صاحت حسنة فجأة وقالت : ماذا ؟! سكين .. مستشفى !

كان شريف موجودا لحظتئذ في البيت ، ويتابع الاتصال ، فلما صاحت أمه أخذ السماعة منها وقال : من يتحدث ؟ أنا شريف أخو قسيم ما الأمر ؟! .. أهلا بك ..في أي مستشفى .. مستشفى الحياة الغالية شكرا أيها السيد .

وضع السماعة وقال بأسف وربما غيظ : حسبنا الله ونعم الوكيل .. مشاجرة على دور التحميل على الخط .. تطورت لضرب وملاكمة ثم سكاكين .. قسيم ضرب أحد السائقين موسا جاء في يديه ، فضرب الثاني قسيما بسكين جاءت في ذراعه .. سننزل العاصمة يا أبي .. هيا أيتها الأم .. يكفي دموعا .. سنذهب لمستشفى الحياة الغالية .. هون عليك يا أبي .. علينا بتزويجه قريبا ـ إن شاء الله ـ لعل الحال ينصلح ويستقيم .. سنستقل سيارة مباشرة إلى المستشفى .

وخرجوا والأب يسب ويشتم ولده الخائب الذي لم يراع أباه ، وما هو فيه من العجز والشلل ،

وها هو يضيف لحياتهم السكاكين والسواطير ، فازداد الغم والهم في قلب الأب الجريح وسمعوه وهم عند الباب يقول : ليته يموت ونخلص منه .

فقال شريف : لأ يا أبي .. لسوف يعقل ذات يوم .. ادع له بالهداية والرحمة .. قل الله يهديه .. هذه مشاكل ومشاجرات السواقين معروفة ومنتشرة في كل البلاد .. فأغلبهم شلل وعصابات فإذا قل الركاب يتشاجرون من الضجر والملل ، وإذا كثر الركاب تشاجر الركاب على الدور ، ويتدخل السائقون فتحصل المنازعات والمشاجرات ..أصلح الله الناس .. هدأ أعصابك يا أبي ، ولا تمقت نفسك .. ولن نتأخر عليك .. نطمأن على قسيم ثم نعود بإذن الله تعالى

فقالت حسنة : الله يهديك ويصلحك يا ابني يا قسيم.

ومرت أم قسيم على شقيقة زوجها التي تجاورها في الشارع ، وطلبت منها أن تمر على أبي قسيم وتقدم له العشاء إذا تأخرت عليها، فوعدتها المرأة بفعل ذلك لما علمت بالحادث الجديد لابن أخيها وقالت : متى تهدأ يا قسيم من المشاكل ؟.. الله يهديك يا ابن أخي إلى الخير والحق .



٥

مع الغروب دخلوا العاصمة وإلى المستشفى الذي يرقد فيه قسيم وصلوا ، وكان قد تم علاجه ولفت ذراعه المصابة بالشاش الطبي، ووجدوه ممددا على أحد الأسرة بعد المعالجة ، وكان وجهه لا يخلو من الكدمات والجروح ، سمح لهم الشرطي القائم على باب الغرفة بالدخول لغرفة المصاب عندما علم أنهم أمه وأخوه ، ولما هنئوه على السلامة ، قال معاتبا لهم كأنهم هم المقصرون في حقه : ألم أقل لك يا أمي اشترِ لي سيارة خاصة ؟.. لو كان لدي تكسي أجرة خاص .. لما تشاجرت مع هؤلاء الأوغاد والمجرمين وما حدثت تلك المعمعة .

قالت وقد مسحت دموعا سالت على خديها : لك سنوات تشتغل يا ابني ! ولليوم لم تدخر ثمن سيارة .. من أين تريد أن نشتري لك ؟!

نظر لشريف شزرا وقال : السيد استغنى عن أموال الجمعيات .. لقد قلنا لا داعي للعجلة .. قلنا متى يتخرج شريف كنا استغنينا عن إحسان الأغنياء .. كبرتم عن أموال الجمعيات والصدقات .

رد شريف محاولا التهدئة من انفعالاته ومتجاهلا غمز أخيه : هناك من أفقر منا يا قسيم .. ولو وضعت قرشك على قرشي لصار معنا حق سيارة صفراء ..ولكن ..

وقبل أن يقول ما بعد لكن صاح قسيم بغضب : اسمع لا تعيرني أرجوك .. أنت لماذا جئت لزيارتي ؟.. أنا لا أريد زيارتك !

ـ لماذا جئت لزيارتك؟ لماذا ؟! أنا جئت مع أمك يا محترم .. أنا أعرف أنك تبغضني .. وأنك تعتقد أنك تركت المدرسة من أجلي كما تشيع بين الناس .. أنت تركت المدرسة لفشلك في المدرسة .. والحمد لله رب العالمين لم استفد منك قرشا واحدا في المدرسة .. الزم حدودك .

فصرخ قسيم محتدا: اسمع أرجوك .. اخرج .. يا شرطي أخرج هذا الرجل من هنا .

ـ حسنا يا قسيم سأخرج .. أنت يجب أن تؤدب من جديد مع احترامي لأمي ..لا تدع أن الظروف أوصلتك إلى هذا ..أنت أوصلت نفسك إلى ما أنت عليه وفيه .

ـ لا أريد أن أسمع .. يا شرطي .. أخرجه من هنا

فقال الشرطي : يا أخ شريف هو مصاب ومتوتر دعك منه وتعال عندي

ـ حسنا.. إني انتظرك يا أمي في الممر .. هو الذي دفعني لهذا الكلام العلقم حتى يعرف حده .. وأننا كبرنا لم نعد أطفالا نأخذ مصروفنا من أهلينا .

ـ يا ليتني أموت .

ـ سوف تموت .. كل حي سيموت .

وغادر شريف الغرفة بعد هذا الانفعال المفاجئ ، وأخذ يتمشى في الممر والبهو، وأخذ قسيم يشكو لأمه قساوة قلب شريف عليه ولؤمه وحقده عليه فقالت : أنت مخطئ يا ولدي !.. فشريف يحبك ، وقبل أن نسمع بالحادث من زميل لك كنا نخطط لتزويجك وتسكينك مكاننا .. وكيف نخرجك مما أنت فيه من أخلاق سيئة لك وللعائلة ؟

ـ لا أحب الوعظ يا أماه !.. لا أريد أن تزوجوني ، أنا أزوج نفسي.. وتابع بعصبية : ءأنا أتزوج من مال شريف ؟!.. لا يمكن أن يحدث هذا ولو مت أعزبا .. مع السلامة يا أمي .. كلكم تكرهونني .. ألم تطمأنوا عليّ ؟!.. مع السلامة.

ـ نحن نكره أخلاقك السيئة .. هل هناك أم تكره ولدها ؟!

ـ نعم ، أنت أيضا تكرهينني أعرف هذا ..

ـ ويلك من الله !.. أنت ابني .. وقد دعوت الله كثيرا أن يبقيك لي.. لقد مات قبلك الكثير .. ولكنك أعوج .. ولا تعرف أنك أعوج أو أنك تتجاهل عوجك .

ـ أنا حر .. سلمي لي على أبي .. وأنا بخير.. ولا تسألوا عني .. أنا وحدي مرتاح في هذه الدنيا اللعينة .

ودعت له بالشفاء والسلامة وغادرته غاضبة ، ولم يحاول دعوتها للاعتذار ، وأخذ شريف يخفف من ضيقها وغضبها ، فقد كان يسمع بعض الكلام كلما يقترب من الباب ، وهو يسمعه يتكلم بصراخ وعصبية أزعجت كل من مر من عندهم ، وقال لأمه : لا تحزني يا أماه ! هو

يريد أن يحملنا سبب فشله في هذه الحياة .

وشكر شريف الشرطي الحارس ، وانصرفوا عائدين لمدينة البركة ، ولم يخبروا الأب عن سوء أخلاق ابنه ، وأعلموه أن إصابته متوسطة ، وهي في الذراع ، وسيخرج خلال أيام .

وفي الصباح التالي اتصلت الأم بالمستشفى فأخبروها أنه نائم ، ولا يرغب بالرد على أحد فقالت : لا حول ولا قوة إلا بالله .. الله يصلحك يا قسيم .. ماذا أفعل حتى يتحسن حاله؟! .. صرت خائفة أن أزوجه بنت من بنات الناس فيسود وجوهنا .. رجل لا يعتمد عليه .. فمنذ اختار المهن وترك المدرسة ونحن لم نستفد منه شيئا يذكر ..إنا لله وإنا إليه راجعون .

كان الأخ شريف يتألم من كل كيانه لحال والده وانحباس بدنه بالشلل ؛ وذلك قدر الله ، فعلى المرء أن يقبل قدر الله ويسلم أمره لله ، لقد حاول عندما مكنه الله دخول القوات العسكرية الوطنية أن يستفيد من خدماتها الطبية والعلاجية في معالجة أبيه؛ ولكن تبين له أن الوقت قد تأخر ، ولا مجال عندهم في إزالة هذا المرض .. فاليوم يريد أن يدخل السعادة لوالديه عن طريق المال وإسكانهم في حي أفضل خدمة وحياة من حيهم هذا ، في بيت واسع جديد ، وكانت أفعال أخيه الأكبر تسبب الحزن والألم للأب والأم وله .. ولا خلاص منها إلا بتوبة قسيم وعودة للأخلاق الفاضلة، وترك الزعرنة والفتونة .. ولكن الأمر كما رأينا زاد وأصبح يستخدم السكين والعصا ، ولما لم يعد يتحمل النقد اضطر لطرد أخيه من حضرته ثم أمه .

هذا ما كان يؤرق الضابط الصغير شريف تلك الأيام ؛ لذلك تجده حريصا للعودة إلى البيت فور انتهاء دوامه ؛ ليكون مع الأب الحزين والأم المسكينة ، فكان من النادر جدا أن يسهر خارج البيت أو يذهب لزيارة الأصدقاء وزملاء العمل والكلية وحتى أقاربه في الحي ومدينة البركة ؛ وكأنه ما زال على مقاعد المدرسة الثانوية ، وكان من طبيعة العمل العسكري أن يمكث الضابط بعض الليالي والأيام في معسكرات الجيش للمناوبة والطوارئ .. فكان يقوم بواجبه العسكري تلك الليلة من تفقد الغفارات وأحوال الأفراد والطعام المقدم لهم .

ويبدو أن بعض الزملاء الضباط لم يعجبهم وضع وحال زميلهم شريف بعدم السهر والعبث معهم والتمتع بحياة الشباب ، وبينما هم يغادرون معسكرهم مساء يوم أقسم أحد الزملاء أن يستضيفه عنده ، ويقضي ليلة في بيت أسرته ليزداد بهم معرفة ، وحاول الأخ شريف بكل ما يملك من قدرات أن يتملص من هذا القسم ، وأمام إصرار الزميل على هذه الضيافة له ولزميل آخر لهم وافق على هذه الزيارة ، وكان من عادة شريف أن يتصل بوالدته قبل مغادرة المعسكر لتعد لهم طبخة يحبها ويشتهيها هو أو والداه ، فلما وافق على زيارة الزميل فواز عاود الاتصال بأمه مخبرا بأنه لن يأتي الليلة لسبب طارئ ، وهذا معتاد في الحياة العسكرية ، بل ربما يُتصل به في البيت ليلتحق بوحدته العسكرية .

وقام الضابط فواز رامي بضيافتهم وهم في الطريق في أحد المطاعم الفخمة المعروفة له ، ويتكرر مروره عليها فهو زبون معروف لذلك المطعم ، وكان هذا الضابط يملك سيارة جديدة قدمها له والده حينما تخرج ضابطا ، فهو ابن أسرة ثرية بمعنى الكلمة ، فقبل شريف ياسر وعزمي سامح الدعوة والسهرة ، وكلهم أبناء دفعة واحدة ؛ ولكن مهنهم العسكرية مختلفة، وكلها تصب في الهندسة العسكرية .

فتفريعات الهندسة العسكرية هي نفس تفريعات الهندسة المدنية ، هندسة مدنية معمارية ، كيمياء ، مكانيك ، كهرباء ، وغير ذلك من التخصصات ، وحتى مدة الدراسة نفس مدتها في القطاع المدني خمسة سنوات على الأقل .

وبعد تناولهم الغداء ساقهم فواز إلى إحدى الحدائق العامة الكبيرة للترفه قبل ذهابهم لبيت العائلة ، ثم نزل بهم بعض أسواق المدينة ، واشترى قطعة من الذهب معلنا لهم أن اليوم عيد ميلاد أخته الأصغر منه .. فهي ستكون حفلة وسهرة بهذه المناسبة المهمة لديهم .. فأحس شريف بالضيق والحرج لهذا التطور .. فقد أدرك الغاية من هذه الزيارة .. وكان شريف يسمع عن مثل هذه الحفلات والسهرات ، وكان يرى ذلك من التقليد الأعمى للغرب ، ويراه من الإسراف والتبذير .

وفكر بالانسحاب ثم أدرك أن الأوان قد فات ، فقد دخل الليل وقد وافق على الزيارة وقبل دعوة الغداء والسهرة ، والسفر للبركة يحتاج لساعات فيزعج الأهل بدخوله عليهم بعد نصف الليل، وقد اعتذر لهم عن المجيء ، فسكت على مضض أو كالمغلوب على أمره ، حتى أن زميله عزميا لاحظ عليه الشرود والتوتر فقال : يبدو أن الأخ شريفا لا يحب مثل هذه الحفلات ؟!

تمهل شريف في الرد لحظات ثم قال : هذه أول مرة سأحضر حفلة عيد ميلاد يا أخ عزمي .. نحن أناس بسطاء.

فقال فواز : هي حفلة بسيطة أيضا يا أخ شريف .. أكل وشرب وبعض الموسيقى وقطع الجاتو والكيك .. وتقديم الهدايا الرمزية لهذه المناسبة والسلام .. عادات تعودنا عليها يا أخ شريف تقاليد وبس !!

ـ غفر الله لنا جميعا

فقال فواز : أنت اليوم ضابط يا شريف .. لازم أن تتغير .. وتحتك بالمجتمع وتتطور وتنفتح على الناس أكثر .. لابد من التغيير .. أنت الآن تمتلك المال والرتبة العسكرية والشهادة الهندسية .. لا تبقَ في عقلية الفقر وحي العمال الذي حدثتني عنه مرة ..أنت لا ينقصك مال يا سيدي الملازم .. سأسعى لتحديثك أنا والأخ عزمي .

فقال عزمي : نعم أيها الزميل .. انطواؤك على أحلامك ونفسك لا يسر صديق .. الآن كما قال فواز خرجت من قمم الفقر .. فأنت بحاجة أن تتغير وتتحضر .

فقال شريف متأوها : آه ! على كاهلي مسؤوليات نحو الوالدين ..أبي كما أخبرتم قديما مريض بحاجة لي .. فكم جاهد وتحمل حتى كبرنا ، فهل في لحظة ضعفه أسمح لنفسي بالانطلاق والانفلات ؟..هذا محال .

فقال عزمي : نحن لم نطلب منك التخلي عن والديك .. وهل نحن متخلون عن أبوينا ؟ .. إنما ندعوك لأخذ حظك من الدنيا .. من المرح واللهو والتمتع .. أنا أدرك المعاناة التي تعانيها ..

لقد حدثتني عن نفسك أيام الكلية .. وأخوك عليه واجب من المسؤولية .. لا يجب أن يظل خاليا منها .. وأنت وحدك تنفق على والديك .. هذه مسؤولية الجميع جميع الأخوة .

فقال فواز عندما رأى شريفا يبتسم من كلام عزمي ولم يعلق بشـيء : الدنيا تتغير يا شريف أنت الآن ابن القوات المسلحة.. وليس ابن حي العمال الحي المأساة كما سمعنا منك .

فقال شريف : أكيد الدنيا تتغير .. ولكن يجب أن أتغير للأفضل والأحسن .. وهل إذا جلست في ملهى أو حانة أتغير ؟! ففي حي العمال حانة خمر هل إذا راقصت صبية تغيرت ؟

فقال فواز : ليس هذا بالضبط قصدنا .. ولكن لابد من المرح والحب والسفر وسهرة هنا وسهرة هناك .. ليست الحياة شغل شغل .. ساعة وساعة .

ـ أحيانا أذهب لنادي العسكر في مدينة البركة .

فقال عزمي: هذا خبر جيد .. تفاعل مع الناس مع الضباط .. فالنوادي تعمل حفلات ونشاطات.. وتحتفي بالمناسبات الوطنية والدينية .. كم مرة ذهبت إليها ؟

فضحك شريف وقال : الحقيقة مرتان فقط ..أنا أقضي أكثر وقتي مع والدي المقعد أيها الأخوة تعودنا على ذلك منذ ابتلاه الله ﷻ بالشلل وأنا على هذا المنوال .

فقال فواز : ولماذا ذهبت للنادي إذن ؟ لابد أن أحدهم كلفك برسالة .. وذهبت إلى هناك من أجل ذلك .

تبسم شريف وقال : أحسنت .. أرجو أن أتغير للأفضل إن شاء الله .

فقال فواز : إنك خائف .. اعتبر هذه السهرة أول مرة وآخر مرة .

فقال عزمي : عليك أن لا تنزعج من مثل هذه اللقاءات يا شريف .. تلتقي بكثير من كبار الضباط في مثل هذه السهرات ..وليس كل سهراتنا رقص وموسيقى .

قال شريف : أنا فعلا مضطرب .. هذه أول مرة لا أكون في معسكري وأنام خارج البيت .. أحس كأنني ارتكب إثما كبيرا .

فقال عزمي : هون عليك .. مرتان أو ثلاث مرات ولسوف ترتاح نفسيا .. ولا تقلق على أمك

وأبيك ..وهدئ أعصابك .. ولسوف تسر من سهراتنا وتشكرنا على فعل ذلك أيها الصديق .
عاد شريف للضحك وقال : أسر بالرقص وأعياد الميلاد ؟!.
فقال عزمي :لابد أن تجرب وتخرج من القمم يا رجل ..أنت ضابط ومهندس وغدا ستكون قائد سرية أو كتيبة أو قائد لواء .

٦

بينما صاحبنا شريف يجلس في مكتبه في الوحدة العسكرية التي عين فيها تكلم معه مأمور السنترال (المقسم) داخل الوحدة قائلا : سيدي .. مكالمة خارجية !
خارجية تعني عندهم من غير وحدات الجيش من المدنيين على اصطلاحاتهم أو رقم مدني ، فردد المهندس : خارجية ! وخطر في باله على الفور أمه فقال لنفسه " لعلها أمي !"
ثم سمع صوتا نسائيا ، ولم يكن صوت أمه كما ظن ابتداء فقال : نعم .. أهلا وسهلا .. أنا شريف .. أوه الأخت عبير يا مرحبا !! .. فواز لا يعمل في هذا المكتب .. عفوا تريدينني أنا ! وتريدين شكري على حضور الحفلة ، شكرا لك عقبال نجاحك في الجامعة بإذن الله .. تريدين تعريفي على بعض زميلاتك اللواتي أعجبن بي .. كان الوقت ضيقا لتعريفي عليهن ليلة الحفلة شكرا .. أنا حضرت الحفلة صدفة إذا صح التعبير أنا لم أكن مدعوا .. آسف ، اعتذري لهن الوقت ضيق لا يسمح بمزيد من الجلسات .. صدقي أنها أول مرة أحضر حفلة ميلاد وموسيقى .. أنا إنسان بسيط .. ومتخرج من الكلية منذ شهور .. أشكرك مع السلامة .
وضع السماعة ومسح العرق المتصبب على جبينه وقال ضاحكا ضحكة صغيرة : تريد أن أتعرف على صويحباتها!! ..وتريد أن تتعرف عليّ أكثر .. يا للعجب ! بنات هؤلاء الناس جريئات على مخاطبة الرجال .. يا لها من فتنة ! وماذا نستفيد من هذه المعرفة ؟.. أأتزوج واحدة منهنّ ؟! .. على شاكلتهن .. لقد كنت في انبهار من تبرجهن وسفورهن تلك الليلة .. ظننت نفسي في ملهى ليلي كما نرى في أفلام التلفاز الأجنبية ..لا يمكن هذا .. أنا أتزوج واحدة منهن ..أنا سأتزوج ـ بإذن الله ـ فتاة مثل أمي امرأة صابرة .. حبيبتي يا أمي !

كم أحبك ! هل سألقى أنثى مثلك صابرة راضية بقدرها؟! .. زوج حيث لا زوج .. مسكين يا أبي ! البلاء شديد ولكنّ الثواب عظيم ..يخيل لي لو أنني تزوجت فتاة من صويحبات عبير اللواتي شاهدتهن تلك الليلة ، وحصل لي حادث خطير لهجرتني بسرعة الريح .. هل يقبلن أن يحيين حياة هادئة لا سهرات فيها ولا لهو ولا رجل ؟! اللهم إني أسألك الزوجة الصالحة يا رب يا الله ! حفلات عيد ميلاد . عيد شيطان .. ناس معهم فلوس لا يعلمون أين ينفقونها ؟! يا رب سترك عليّ وعلى والديّ .



وتكرر الاتصال ثانية وثالثة حتى انزعج الشاب انزعاجا شديدا وخشي على سمعته وشرفه ، فطلب من عامل الاتصال أن يعتذر لكل امرأة تتصل به إلا أمه ، وغادر المكتب متوترا ومتجها إلى مسجد المعسكر لصلاة الظهر وهو يقول : أيعلم فواز بهذه المكالمات ؟! هل أعلمه بها وأطلب منه أن يكف أخته عن هذا العبث ؟ ولكن عزمي يقول " أتهرب من السعادة والثروة لا تدع الفرصة تفوتك ؟" أي فرصة ؟! .. وهل أنا على قد هؤلاء الناس ؟ يقول عزمي " تقضي عشرات السنين في الخدمة ، ولا يجتمع لك ما عند والد فواز من مال" .. سأصبح مليونيرا على رأيه .. وماذا سأفعل بالمليونير ؟ .. أين الكرامة والشرف ؟ أنا كنت استعر من إحسان الجمعيات .. وكنت أدعو الله ليل نهار أن أكبر وأتخلص من ذل الصدقة .. مع أنه مال أباحه الله ﷻ للفقراء والضعفاء .. اللهم غناك .. وسترك يا الله.. وهل من الضروري إذا أصبح الإنسان ضابطا أو مهندسا أن يخلع تقاليده وعاداته الحسنة ؟!

ودخل الصلاة وهو مهموم الفكر قلق من هذه الاتصالات الشيطانية ، وهو حائر من فتاة لا تجد ترحيبا ومع ذلك تعاود الكرة .

٧

كان شريف مناوبا في معسكره ذات ليلة ، وكان معه في تلك الوظيفة الليلية المهندس فواز ، وتركا نادي الضباط داخل وحدتهما ليتجولا على العساكر التي تحرس المعسكر ، وأثناء تجوالهما كانا يتسامران ويتناقشان ، وبعد دورتهم التقليدية على العساكر قفلا عائدين لنادي ضباط المعسكر حيث يسهر الضباط ، يشاهدون برامج التلفزيون المحلي ، ويشربون الشاي والقهوة والمرطبات ، ويثرثرون ، وفجأة قال فواز لشريف : يا ملازم شريف اشتكت الأخت عبير منك .

تفاجأ شريف بما سمع وهتف : ماذا ؟!

قال : أخبرتني أنك طلبت من مأمور الاتصال أن لا يصلها بك .

قال وهو ما زال مدهوشا : هي قالت لك ذلك ؟!

ـ نعم ، يا شريف .. يا صديقي عليك ألا تأخذ مثل هذه الاتصالات بحساسية ورعب .. نحن في مجتمع منفتح .. فمحادثة الشاب والشابة في بيئتنا أمر طبيعي ..لا يقوم على خيالات وحكايات ؛ ولكنك لم تعتد على مثل ذلك فتخاف وتقلق .. لن يكون هناك قصص حب وغير ذلك إذا تحدثت مع أختي أو قريبتي .. أنت لو درست في جامعة مدنية لشاهدت مثل هذه الأمور في حياة الجامعة .. تصاحب اليوم فلانة وغدا علانة .. فعليك أن تتعامل مع عبير أو صاحباتها كما تتعامل مع الزملاء الذكور .. تتعاون مع هذا وتكره هذا .. الفتاة وزميلاتها أعجبن بك تلك الليلة فيرغبن بالتعرف عليك أكثر ..والحديث أكثر .. فهن أصبحن ينظرن إليك أنك صديق العائلة .. لن يكون هناك زواج وعلاقات خاصة .. صداقة بريئة يا ملازم شريف .

كان شريف يسمع هذا وهو مذهول للأفكار المطروحة ، فلما سكت فواز وطال صمته قال : هذه المخالطة طبيعية في بيئتكم ؟!

قال : طبعا ، هذه مع الوقت أصبحت تقاليد وممارسات عادية لا تشكل أي ضغط نفسي علينا

فأنا أدعوك أن لا تعقد الأمور .. وخذ راحتك في الحديث مع عبير وصاحبات عبير .. المجتمعات تتغير يا شريف ..ولما تصبح من كبار الضباط ستأخذ زوجتك لمشاركة الضباط في حفلاتهم وسهراتهم .. وهذا سيسلم على زوجتك ..وهذا سوف يمازح زوجتك وإلا أصبحت منبوذا وشاذا .. فالأخت عبير تريد أن تخاطبك وتشاركك همومك وتناقش معها مشكلاتها .. لتخرجك مما أنت فيه من السذاجة والحياء الشديد .

قال شريف وهو ما زال مأخوذا بما سمع : أسمع كلاما خطيرا يا فواز .. أختك كما علمت منك أنها في الجامعة .. ألها أصدقاء في الجامعة ؟!

ضحك فواز ورد : هذا شيء طبيعي أن يكون لها أصدقاء من الجنسين .. كما لها أصدقاء من الجنسين في نادي العائلة والحي ..ولليوم ما سمعت أنها علقت بشاب ورغب بزواجها .. أنا أعجب بفتاة من فتيات المعارف وتعجب فيّ .. ولكن ما زلت كما أنا ، ولم أحيا قصة عاطفية ساخنة .. والزواج لم أفكر فيه بعد .. نحن أشراف يا زميلي الفاضل .. لكننا انتهينا من عقدة الاختلاط والخوف من العلاقات الخاصة بين الجنسين .

ـ أي صرتم مثل الأجانب ؟!

ـ نعم ، فأحيانا نشترك في حفلة شراب .. شراب خمر .. لكن لا نبالغ بتعاطي الخمر حتى السكر البالغ .

ـ هكذا مجتمعكم !

ـ نعم ، فلا تتردد في لقاء عبير والحديث معها .. وتقول إني خجلان من الزميل فواز .. نحن غير معقدين .. وإنها إذا اتصلت بك فتحدث معها وناقشها فيما تستشيرك به .. ولا يقع في بالك أنها مغرمة بك وتلف حولك .. فالفتيان حولها كثر .. تذكر هذا .. فهي راغبة في مساعدتك وإخراجك كما قلت لك أكثر من مرة من انطوائك وتقوقعك في عملك وخوفك من النساء كما بدأت لها تلك الليلة حتى لا تعرق وتتوتر إذا وقفت امرأة للحديث معك .. قد بدأت لنا طفلا صغيرا ليلة عيد ميلادها بخجلك واحمرار وجهك وارتباكك الشديد ..

فاستأذنتني لتجعل منك رجل مجتمع من الطراز الأول .. لذلك دعوتك لعيد ميلادها .. حدثتها عنك وعن انكماشك .. فطلبت مني أن أدعوك وأعرفك بها لتغيرك .

كان شريف يسمع حديث فواز وهو في غاية الاستغراب والتعجب ، فتاة تطلب من أخيها أن يعرفها عليه لتساعده من الخروج من عالمه إلى عالمها .. اضطرب عقل صاحبنا لهذه المبادئ والأفكار .. وعد فعل هذه الفتاة جرأة في غير محلها.. تطلب من أخيها أن يعرفها على شاب غريب ليتخذها صديقة .. فهم عندما تهوي فتاة للرذيلة يستسيغون الأمر ، ويعتبرون الأمر خاصا بالفتاة وحدها لا يضير أهلها .. أما نحن تنقلب عندنا الدنيا والعشيرة والعائلة لسقوط فتاة في مهاوي الفجور ويصيبنا الخزي أبد الدهر .. الناس عجايب ! أيُّهم الصحيح يا دنيا ؟!

ولم يكد شريف يستوعب حديث فواز حتى فاتحه عزمي سامح قريب فواز بالموضوع نفسه ، وتوسطه بينه وبين عبير ، وأنه يسيء إليها برفضه للحوار معها ، وأنها تُكن له من الود والاحترام الكثير ، وأعاد على مسمعه أن مثل هذه العلاقات والتصرفات بريئة من كل سوء وفساد ، وأن وسطهم الاجتماعي يتقبل مثل هذه الاجتماعات واللقاءات بأريحية كاملة ، وأن هذا الانفتاح بين الجنسين يزيل الكثير من العقد النفسية والاجتماعية والتوترات المختلفة .

فقال له شريف : رغم ما كنت أسمع في حينا وبيئتنا عن مشاكل وعلاقات غرامية بين فتيان الحي وفتياته .. فإني أعجب مما أسمع منك ومن الملازم فواز .

- نحن وصلت إلينا الحضارة قبلكم .. هل تظن أننا لا نغار على أخواتنا ؟!.. صدق أننا عندنا غيرة ربما أكثر من رجال حييكم ..

- أنا لم أتحدث عن الغيرة .. فالغيرة نسبية وتتفاوت من مجتمع لآخر.. هذا لا يخفى عليّ .. أنا أعلم وأقرأ أن فرنسيا قد يقتل ويغتال عشيقته إذا أحبت غيره وخانته .. لكل أمة طباعها وطقوسها .. ولكننا مسلمون !

- ونحن مسلمون ولكنك تقول في نفسك هل هؤلاء حقا مسلمون ؟!

ـ أكيد أنتم مسلمون .. ولكني أرى أن إسلامكم غير إسلامنا أو كما قلت سبقتمونا في التطور والحداثة .. يا أخ عزمي اعلم أنني عشت حياة صعبة مؤلمة.. أنتم لم تعيشوا المأساة التي عشنا بعض فصولها .. أنا لما تعرض أبي لسقوط حجر عليه في ورشة أو بناية ..كنت يومذاك في الصف السادس .. كنا في فقر مدقع .. كنا نبيت أحيانا كثيرة من غير عشاء .. عندما أصبح الوالد عاجزا يركب عجلة لم يكن يملك سوى عشرات من الدنانير .. لم يكن دخله وعمله يسمح له بالادخار .. والعلاج على حسابنا .. أو قل على حساب الجمعيات وأهل الخير .. الأقارب مثلنا لا يملكون الكثير وكلٌ عنده أحواله .. أنت لم تعرف الجوع والعري .. لم تلبس ثياب الصدقة والإحسان .. البنطال يبقى على جلدك سنة أو أكثر لا تستطيع أن تستغني عنه من الحاجة والفقر.. واقع مؤلم الذي عشته يا أخي .. وعليّ الآن عبء تغييره .. آه لو تعلم كم فرحت عندما قبلت أوراقي في الجيش .. كأني عانقت السماء ..أعدتني للوراء يا عزمي ..كيف يكون شعور المرء عندما يذهب للمدرسة بالثياب المستعملة والبالية ؟! .. ولكن الحاجة تلزمك أن تصمت .. لا أدري كيف يشعر المرء عندما تذهب الأم للعمل عند العائلات الغنية لتوفير الدواء للوالد المصاب؟! .. أقرانك في المدرسة يأكلون الساندويتشات الطازجة .. وأنت تنظر إليهم من بعيد .. وإذا لمحك أحدهم أشفق عليك وعرض عليك طعامه ، أي دم يبقى في وجه الإنسان؟! .. وأنت تتظاهر بالشبع مدعيا أنك أفطرت فطورا تتحدث عنه الأمعاء، وقد تكون بت طاويا على جوع .. ولا أقول لك إنني وحدي من كان يعاني مثل هذه الآلام .. فغيري كثير مر بمثل ظروفي .. ولكن أتصور أن أكثرهم ينسى مثل هذه الصور .. لم تر الحزن والبؤس في وجوهنا عندما يأتي العيد والأعياد.. الكل فرح ومبتهج إلا نحن في ضيق وألم .. وعندما نعود للمدرسة ويتحدث الأغنياء عن الرحلات والملابس وقصات الشعر وأفلام السينما التي تمتعوا بمشاهدتها وحدائق الحيوان التي زاروها .. والملاهي التي لعبوا فيها .. كم من الألم يحدث لنا! هذه حالنا يا سيدي.. أتريد مني أن أصاحب البنات وأسهر مع البنات.. وأسافر معهن؟! .. ولدنا فقراء فعرفنا قيمة القرش والدرهم ..هؤلاء

الفقراء عندما يذهب المعيل الوحيد لهم بموت أو مرض يضطرون لأكل وجبة واحدة دسمة في الشهر أو في عيد الأضحى .. ويرتدون الثياب العتيقة .. وبعض الأقران يدرسون في مدارس أهلية يذهبون في الحافلة ويعودون بها .

ـ عقدت الأمور يا شريف .. فهذه الأحوال يجب أن تدفعك لتغيير نمط حياتك .. وتتطلع إلى الغنى بعين جدية .. حتى لا يكرر أولادك مأساتك ..

ـ إنها ترسبات مريرة !.. وهي قد تكون دافعة للخروج من هذا الألم والجرح .. ونحتاج لسنين وسنين وليس ساعات وساعات .. يا عزمي كم كنا نصاب بالقلق والخوف عندما يتأخر المبلغ البسيط الذي تقدمه لنا الجمعيات !.. الدواء.. مصـروف الشهر ..الحمد لله .. الحمد لله .. الحسرات لا تذهب من النفس .. عندما تنقل الوالد المشلول للمستشفى .. وأنت لا مال عندك .. مع أنه مبلغ بسيط تأخذه تلك المستشفيات التابعة للحكومة والدولة .. ولكنه كبير لدى المعدوم .. تستلف من هذا أو ذاك ..كم فرحت وسعدت عندما أخرجت بطاقة العلاج الطبي من القوات المسلحة ! وحملنا الوالد الصابر للمستشفى العسكري ، ولكن صدمنا بعد الكشف عليه ..أخبرونا أن الوقت قد فات وأن العلاج قد تأخر .. ذهب الأمل والفرح .. لو تم علاجه في مستشفيات وعناية خاصة قبل اليوم ربما تخلص من المشي على عجلة .. أرأيت يا صديقي مأساة الفقير في بلادنا ؟! .. وليت المأساة انتهت هنا يا أخ عزمي ..

ـ أهناك مأساة أخرى ؟!

ـ لي أخ أكبر مني بسنة ، كان ضعيفا في المدرسة ، يكره المدرسة والتعليم .. وكان يتكرر رسوبه في الفصول .. ولما حدثت مصيبة أبي أخذ يضغط علينا لترك المدرسة ويدعي أنه سيعمل من أجلنا .. وبعد تردد وصبر سمحنا له بترك المدرسة والعمل في سوق العمل الحر.. شاب صغير تملك بعض القروش ففسد وانحرف وضل الطريق فصار عبئا آخر على الأسرة ولكنه منذ فترة قبل تخرجنا من الكلية تعلم السواقة وهاجر للعاصمة وما زلنا نعاني من مشاكله ومتاعبه ..كلي ألم يا عزمي!

ـ مع احترامي لحكايتك وظروفك .. فهذا لا يمنعك أن تبحث عن حياتك الخاصة.. لماذا تدفع الثمن وحدك ؟

قال : أنا لم أدفع شيئا يستحق المكافأة .. لكن وظيفتي في الجيش ردت الكرامة لي وللأسرة ردت الشرف إلينا.. رفعت من الروح المعنوية لي أنا أولا ثم لأبي وأمي .. كل الناس أو أغلب الناس تعمل عند الناس .. وعمل عن آخر يفرق .. تعمل وأنت عزيز خير من أن تعمل وأنت ذليل .. أتريد مني أن أترك بيتي وأسرتي وظروفي لأسايركم في سياراتكم ونزهاتكم ؟! .. المال الذي سأنفقه على هذه الأشياء تحتاجه الأسرة .. ألا تحتاج هذه الأشياء لمال؟.. أنت تأخذ من أسرتك .. وكذلك فواز لا أحد يطالبكم بفلس .. مالك لك .. أما مالي فلي فيه شركاء حتى لو لم يطلبوا بأفواههم ..

ـ الحمد لله إن الكثير من الناس لا تفكر مثلك وإلا أغلقت الملاهي والمقاهي والخمارات و... و ...

ـ هذه حالتي .. فأخي قسيم الذي حدثتك عنه قبل قليل لم يحسبها هكذا .. ولم يفد الأسرة بقرش .. بل كان يسرق أحيانا أموال المساعدات التي كانت تقدم لنا .. وعمل سائقا ولم يفعل شيئا للأسرة .. ما زال عبئا علينا .. وإن خف هذا بعد رحيله للعاصمة شين ..الناس تتفاوت في الأمور المعنوية .. ها أنتم كما قلت لي تسمحون لبناتكم بمصاحبة الشباب والمعارف في الجامعة أو الحي ولا يثير ذلك فيكم الغيرة والحمية .. نحن في بعض مناطقنا نسمع عن جرائم العرض .. هذا قتل أخته أو أمه ..

ـ نتعجب عندما نسمع عن إزهاق روح بريئة لأمر تافه

ـ في نظركم .. أما عندهم فهو كرامة وشرف ورفع عار .. لأن الموضوع يؤثر على الجميع .. العائلة كلها .. أما في بيئتكم فيكون التأثير على الفتاة وحدها .. فلا يخجل أحدكم عندما يقابل أناسا تعرف حكايته .. أما في أحيائنا .. فالأمر قاس وعار وسبة..

ـ رغم أننا أبناء قطر واحد .. نظرتنا للأمور مختلفة .. نحن أنا وفواز رأينا أنك بحاجة

للتمدن والتحدث وترك الانطواء والحزن .. والعيش بحرية وانفتاح ومرح

ـ شعور نبيل أشكركم عليه .. كيف أنسى آلام أمي وهي تعمل في بيوت الموسرين في مدينة البركة من أجل إطعامنا من أجل أن توسع علينا بمزيد من الرفاهية والطعام ؟ .. تنظف بيوتهم ومراحيضهم ومطابخهم .. وتغسل مواعينهم وملابسهم ..وقد يتلف هؤلاء من الطعام الكثير ، ويلقى في حاويات ومزابل البلديات .. وقد يذهب بعضه للحيوانات .. أخي عزمي فلنبق أصدقاء وزملاء ودعنا من النساء .

ـ أنا أشعر معك في ظلم المجتمع لكم .. وأنه لم يقدم لكم العون الكافي .. ولكن هذا طبع الحياة .. والفقر ليس عيبا ؛ ولكن الغنى أجمل وأحسن في رأيي .. والغني قد يصاب ببلية لا ينتفع مما لديه من مال .. فيمنع من طعام معين من سفر ..هذه حياة وهبها الله لكل الخلق .. فعليك أن تمنح نفسك فرصة التمتع والتكيف مع حياتك الجديدة .. لا تنظر للوراء والفقراء فلن تخلو الدنيا منهم .. أنت ضابط مهندس دخلك ممتاز .. ولا تظن أن ملكنا للمال الكثير يعني أننا سعداء ولا مشاكل .. لا يخلو أحد من منغصات ومنكدات ومنازعات .. لكننا نحب الحياة ونسهر ونسكر ونلهو ونحب ونكره .. يجب أن نعيش ونرمي الماضي وراء ظهورنا

وصمت لحظات ثم عاد للكلام فقال : قد يكون صحيح أنني غني بثروة أبي وأمي .. أنا أعترف أن والدي كان يملك أربعة مصانع في البلاد ، ولكنه تعلق بالميسر ولعب القمار فخسرها كلها ثم انتحر في النهاية .. ولولا أموال أمي التي لم يستطع الوصول إليها لبتنا على الطوى كما يقال .. هكذا الحياة يا شريف .. وأنا وصلت الكلية العسكرية بواسطة والد فواز فبينه وبين أمي بعض القرابة .. ولكني أعيش حياتي وأصاحب الفتيات .. ولا أخشاهنّ .. وأتعامل معهنّ كما أتعامل معك ومع فواز .. والأخت عبير سمعت منا طرفا من حياتك البائسة في نظرنا.. فألحت على فواز أن يعرفك بها لتقوم بتغييرك .. وتنقلك من مجتمع الكآبة إلى مجتمع الفرح والسعادة .

قال شريف معقبا: كلام عجيب !.. النساء فتنة .. وأنا أسمع الكثير من المآسي بسببهن .. وشارعنا لا يخلو من الفتيات .. ولا يخلو من المنحرفات والساقطات .. وكثيرا ما نسمع عن قصة زواج غريبة .. وحكاية عشق غريبة ..ولكني وضعت لنفسي هدفا .. تعويض والديّ عما أصابهما بسبب فقرنا .. والبعد عن النساء وقضاياهن .. ليس حقدا على جنس النساء .. وإنني لن أتزوج في يوم ما .. لا ..لا .. سوف أتزوج بهدوء بدون صخب.. فأنا أحب الحياة الجادة والهادئة.

ـ لا غنى لنا عن صحبة النساء والسمر معهن والتمتع بالنظر لعيونهن وخدودهن وشعورهن ومحاسنهن بشكل عام .. والسرور بمغامراتهن .

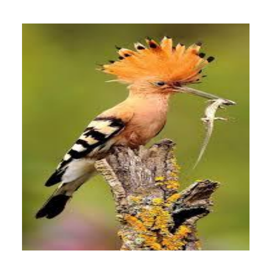
ـ هذا عندنا حرام .

ـ وعندنا حلال !

ـ أخلاقنا لا تسمح بذلك .. فاعتذر لي للأخت عبير.. وحدثها ببعض ما سمعت مني عن نفسي وأسرتي ..وليس فعلي هذا عن بخل .. فأنا لا أسمح لنفسي بصرف قرش في غير محله الذي أراه صوابا يا صاحبي .. أمي وأبي أبدى فيه .. أنت لو ترى البيت الذي اسكنه الآن لعذرتني .. بل تعرفه لقد دعوتكم مرة إليه أثناء الكلية .

ـ ألم ترحلوا بعد ؟!.. سمعت مرة أنك سترحل عن الحي .

ـ نعم ، سوف نرحل بإذن الله .. قريبا سأشتري قطعة أرض للبناء عليها



٨

رغم كل التبريرات والاعتذارات والحجج التي بينها شريف لزميليه فواز وعزمي كانت عبير تصر على الحديث معه ، وتسعى إلى اللقاء به ، وتكوين علاقة صداقة معه كما تزعم ، فقال له فواز يوما: يا رجل جننتني عبير بكثرة السؤال عنك .. وعن أخبارك .. ولماذا تتهرب من اللقاء بها ؟..وهي تترجاك أن تزورنا في البيت .. لن تذهب بك إلى حديقة أو فلم أو مسرح .. مجرد لقاء من أجل الحوار .. يا سيدي أرجوك أن تجلس معها وتقنعها بأحوالك وظروفك وكفاحك .. لتكف عن إزعاجي أنا وعزمي .. تتهمنا بأننا نحن الذين نحول بين اجتماعكم .. تقول لك " إنها أخت ترغب بالحديث مع أخيها " .. أنا أدرك غرابة هذا الطلب عندك .. ولكنه بالنسبة لي شيء طبيعي يا شريف .

ـ هذا غير معقول يا فواز .. أرجوك أن تمنعها وتبعدها عني .. فهي تكثر من الاتصال بمأمور الاتصال سائلة عني وعن صحتي .. هذا أمر محرج لي ولك .

ـ أتوسل إليك أيها الصديق .. أن تلتقي بها وجها لوجه مرة واحدة ؛ لعلها تصدق حججك وأعذارك .. حوار ساعة تنهي فيه الموضوع .. فعندما تسمع منك تصدق أنك مرعوب من لقاء النساء ..سأدعوك في يوم عطلة لغداء ..وستتكلم كلنا جميعا لن تخلو بها ما دام الاختلاء من وجهة نظرك حرام ولا يجوز ..فأخشى أن تأتي لزيارتك هنا وتسبب لك حرجا كبيرا ..

فقال شريف وهو يتخيل فعل هذا الأمر : لا أستغرب فعلها ذلك !

ـ إذن قابلها بالحسنى .. وبين لها أنك لا تحب التعرف على الجنس الثاني .. وأن أمامك مسؤوليات كبيرة هي التي لا تسمح لك بمثل هذه الصداقات البريئة .

ـ عندي فكرة !!

قال فواز : هذا ما أحلم به .. قلها يا رجل !

خطرت لشريف فكرة عجيبة قد تكف الفتاة عن ملاحقته ومطاردته بغض النظر عن النوايا فقال : ما رأيك بأن أدعوك وأختك الفاضلة لزيارة بيتنا وتقابلان أمي وأبي .. لتر الآنسة بيتنا

وحياتنا على الواقع ؟

ـ إنها قسوة منك يا شريف !.. أتريد أن تصدمها ؟!

تبسم شريف وقال : أريد أن تعرف مجتمعنا وبيتنا وظروفنا .. فالأخ عزمي يعرف البيت .. قد زار مرة البركة فدعوته وشارك الأسرة طعام العشاء ..وإذا وافق هو أيضا على هذه الدعوة فحياه الله .

ـ وإذا رفضت ؟

ـ آمل أن لا ترفض ما دامت تسعى للقائي .. فهي راغبة بمعرفة أسباب تهربي من الرد على اتصالاتها .. والتهرب من أي لقاء بها.

ـ حسنا ، سأنقل لها هذه الدعوة .. لأنني مللت منك ومنها .. مصممة على تغييرك وجعلك " جنتلمان ".. حقيقة أنا كنت أرى أنك سهل لين .. ولما تتخلص من عقدة الفقر ..ستتلحلح يا شريف .. وترى أنها فرصة للاندماج في المجتمع الراقي .. لننتظر ما يحدث على الطبيعة .. وكيف ستكف عبير عن محاولة إخراجك من القاع إلى القمة ؟!

ـ أي قمة يا رجل ؟! .. عندما ترانا على الواقع والحقيقة ، وترى أمي التي صبرت وجاهدت حتى كبرنا ، وأصبحنا شبابا سترى أن ابتعادي عنهم لا يمكن .. بل هو المستحيل نفسه .. ولا وقت لدي للسهر والسمر والنزهات ..أفضل ساعات اليوم هي التي أقضيها بقرب أبي وأمي

ـ ما شاء الله !.. وفاء وحب كبير .. من يسمعك يظن أن عبير ستتزوجك وتأخذك من حضنهما ..مع أني أتمنى من كل قلبي أن تتزوج عبير من شاب محترم مثلك .. نحن بناتنا تنكح من أجل ثروة أبي يا شريف .. كل أزواج أخواتي تزوجوهن على طمع ورغبة في المزيد من المال ؛ ولكن هذه طبيعة بيئتنا كما يقال .

ـ وأنا أشرف بالزواج من بيتكم يا فواز !.. ولكن كما قلت الفارق الطبقي يقف حجر عثرة بيننا .

هز فواز رأسه وقال : نعم ، عند الزواج الأمر يتعقد ، فليس من السهل أن يوافق أبي على زواج

آخر بناته من رجل ماله قليل ..مع الاحترام الكامل لك أيها الأخ .

ـ تعجبني صراحتك يا فواز !.. ولكن كيف يسمح والدك لأختك باتخاذ أصدقاء ذكور لها؟!

ضحك فواز طويلا ثم قال : أنا أعرف أنك تستغرب جدا من هذا الانفتاح والاختلاط .. هو عرف اعتادوا عليه أو تربوا عليه وربينا عليه .. فهو يسمح لنفسه بالجلوس مع نساء وبنات الآخرين ، فلابد أن يسمح لنا ولأخواتنا بذلك .. المعاملة بالمثل ، ومع الأيام سادت هذه الأعراف .. أما الزواج ففيه مال ومطالبات ومصالح ومشاريع .. فالزوج أو الزوجة يجب أن يكون صاحب مال أو صاحبة مال .. للتجارة والعمل وللهو .. أحيانا تقام حفلة ينفق فيها المال الكثير الكثير ..أنت لا تعرف المباهج والسمر والملاهي .

ـ هذا من فضل ربي .. فقد تركت السمر لأخي الأكبر قسيم .. فقد تعرض لاعتداء بالسكاكين منذ حين .. ولما ذهبنا لزيارته والاطمئنان عليه طردنا ، ولم يعد يتصل بنا .. هذه إحدى فوائد السمر والسهر !

٩

ـ يا الهي! إنه بيت يكاد أن يسقط .. لا أعلم كيف يعيش فيه صاحبك ؟! .. هل ما زال في بلادنا ناس يسكنون مثل هذه البيوت الآيلة للسقوط ؟!

بهذا الاستغراب كانت عبير تحدث أخاها فوازا وعزميا ، وهم منصرفون من بيت صديق فواز المهندس شريف ، وأدرك الشابان أن الرسالة التي أرادها شريف قد وصلت لعبير ، فقال فواز وهو يتطلع في عيني عزمي ومخفيا ابتسامة : كل هذا الحي ..أو هذا الشارع على هذه الصورة يا عبير .. قوم بؤساء مساكين !

وقال عزمي تحزنا : نعم ، حياة صعبة وبيوت ضيقة ؛ ولكنهم يعيشون .

فعادت الفتاة تقول ربما بألم حقيقي : ألا تساعدهم الحكومات المتعاقبة ؟! ..ألا يمدون لهم يد العون ؟!

فقال فواز : تقدم لهم الدولة مساعدات يسيرة .. فمؤسسات التكافل موجودة .. ولكنه فتات

هذه البيوت كلها تحتاج إلى هدم وإعادة بناء أو ترحيل لمكان آخر .. وهذا يحتاج لأموال ضخمة .

وقال عزمي مكملا : هذا مشروع وطني يحتاج لجهد كل البلد ؛ ولكن من يقرع الجرس؟ .. فمثل هذه الأحياء تنشأ في أغلب المدن الصناعية .. أناس يتركون قراهم وأريافهم للعمل في المدن الصناعية وحولها ..وهنا تجد الإيجارات قليلة .. وأثمان المنازل أيضا قليلة .. فتتكون مثل هذه الأحياء فتضطر الدولة أو البلديات لتقديم الخدمات لهم من ماء وكهرباء وصرف صحي فقالت عبير بأسف وعتب : على الحكومة أن تهتم بهؤلاء الناس .. عندما أسمع أو كما قرأت منذ فترة عن سقوط بيت على أهله .. فأستغرب وأعتقد أن خللا في الإنشاء سبب ذلك .. أما مع هذه البيوت .. فسقوطها من الزمن .. إنه لشيء محزن أن يوجد مثل هذه الأحياء في البلاد ونحن نسمع أن الثري فلان خسر ملايين على طاولة خضراء في جلسة واحدة .

فقال فواز : هذا هو قصر صديقنا الأخ شريف !

فقالت : هذا يؤكد فعلا أنه بحاجة لإنقاذ ومساعدة .

قال فواز ساخرا : إنقاذ !

قالت : سأتكلم مع أبي ؛ لعله يقدم له قرضا يعينه على شراء بيت أحسن من هذا .

فقال عزمي : هو يفكر بشراء قطعة أرض .. ليبني عليها شقة .

قالت بضيق : يحتاج لسنين قبل أن يخرج من هذا المنزل الكئيب .. لابد من عمل شيء مهم من أجله .. ما دمنا تعرفنا عليه.. وهو زميل لكم منذ سنوات ..

فقال عزمي : يا عبير الأفضل أن تلزمي حدودك .. وحذار من فعل شيء لشريف ، فهو إنسان عصامي مكافح لن يقبل منا أي مساعدة مالية أو غير مالية.. هو لما قبل في الجيش فبعد أول راتب ذهب إلى الجمعيات الخيرية التي كانت تمدهم بالعون وشكرهم واستغنى عن مساعدتهم التي كانت شيئا يسيرا .

قالت : وضعهم محزن .. قلبي تمزق .. لم استسغ طعامهم مما ألم بي من الألم

قال فواز منتقدا : تصرفك هذا ضايقني ..كان عليك أن تراعي الشاب .. وتتظاهرين بالأكل وكيف تزعمين الشبع وأنت مدعوة لغداء ؟!

ـ لم انتبه لذلك إلا بعد انسحابي ونظرتك الحادة إليّ .. وما كان بالإمكان العودة للمائدة بعد أن أعلنت شبعي ..ومع ذلك علينا أن نحاول فعل أي شيء لصديقنا .

فضحك فواز على إصرار أخته بمساعدة شريف فقال : بماذا يا عبير؟! .. دعك من شريف وصداقة شريف ومساعدة شريف .. أنا استعنت بك وبأفكارك لنفتح له الطريق إلى عالم الأغنياء ومجالسهم .

صاحت : لابد من رد الدعوة كما دعاني سوف ادعوه .

قال فواز بحدة : هو دعاك لتكفي عنه .. وترينّ ظروفه على حقيقتها ، وأنه ليس لديه وقت للهو والسهر .

ـ أترضى لي الفشل ؟.

قال فواز : شريف عنيد .. وكرامته زائدة عن كرامات الناس ..

وحساس من جهة ثانية إلى آخر مثل هذه المصطلحات الفارغة .. حتى أنا أفكر بالابتعاد عنه وأنتقل إلى وحدة عسكرية أخرى .. فهو رجل صحبته مزعجة .. ومثيرة .

فقال عزمي : ولكنه مجتهد .. وكل الضباط يحبونه ويحترمون إخلاصه ونشاطه .

فعاد فواز يقول : أنا أشفقت عليه .. وقلت لو احتك معنا في بيئتنا وحياتنا سيتغير ويصبح ابن مدينة بحق .. ويبتعد عن الانطواء والانكفاء .. وهو زميل منذ أيام الدراسة الأولى .

قالت الفتاة : لم نصل محطة اليأس منه .. فالانتقال من جو إلى جو يحتاج إلى وقت .. ليس كل الناس يتغيرون بكلمة وبسرعة الصاروخ .. رويدا رويدا .. بعضهم يحتاج لسنوات ليتخلص من فكرة ثبت خطئها وانتهاء زمنها .

فقال فواز : أنا آسف .. سأرفع يدي من هذه المهمة .. وها هو عزمي معك في الركض لإنقاذ الرجل .. حقيقة أنني أشعر بالندم لذكره لك لسماع مشورتك .. أنا بعد هذه الزيارة والدعوة

لبيته رفعت يدي يا عبير .. أرجوك أن تفكري بالأمر بجدية .. والأيام وقيم المجتمع التي ستجد عليه لعلها تغيره ..وإذا رأينا تعديلا في أفكاره وأفعاله سنفتح له صدورنا.. فعلنا نحوه المناسب وهو ينفر ويفر .. نحن لن نأخذ منه شيئا .. وهو يرفض مساعدتنا .

قالت بغضب خفيف : أنت اخرج من الملعب .. سأدبر نفسي معه .. ولسوف تراه يجالسك ويسامرك في أكبر ملهى ليلي في بلادنا .. وسيكون أحد أفراد سهراتنا .

فقال عزمي : الأخت عبير ليست سهلة .. فقد ورطتها مع شريف يا ملازم فواز.



١٠

شريف ياسر يريد البعد عن عبير ، ولا يحب ولا يرغب بمثل هذا الانفتاح الاجتماعي ، فلم يكن يرى من الأخلاق الحسنة مصاحبة الفتيات ، وكان يعرف واجبه نحو والديه حق المعرفة ، ويرى أهمية القرش من أجل نفسه وأجل أسرته .. وكان يدرك إدراكا تاما البون الواسع بينه وبين أسرة فواز وعبير، هم أصحاب مال وشركات وتجارات ، وهو إنسان ضعيف الحال ، ويحتاج إلى زمن ليصبح منافسا لهؤلاء الناس ، وقد فكر حتى ولو غامر وتزوج منهم فسيبقى العنصر الضعيف في مجتمعهم ، ولن يتخلص من همساتهم وجرحهم لكرامته وعرضه .. فسيعتبرونه متسلقا ومستغلا لعواطف ابنتهم اتجاهه .. فكان يرى الأسلم الابتعاد عن مثل هكذا مجتمعات .. ويخشى من سوء تصرفهم إزاء والديه .. فرأى بزيارة عبير لبيت الأسرة ومعرفة وضعه الاجتماعي على حقيقته ، وحاجة أسرته للبقاء معها بأن يصرف الفتاة عن طريقه ودربه ، وأن تبقى علاقته بفواز علاقة زملاء عمل .

هذا ما كان يأمله الأخ شريف من هذه الدعوة وتلك الزيارة لبيت الأسرة ، ولكن هل وصلت الرسالة لعبير وقطعت الأمل من زيادة معرفة بشريف ؟!

والأخ شريف كان لا يرتاح كثيرا لصحبة فواز وعزمي ، لولا حياة

الكلية أيام الدراسة التي جمعتهم لانتهوا من حياته ، وكذلك عملهم في وحدة عسكرية واحدة فهو لم يكن يعجبه الكثير من أفعالهم الخاصة ، وكان يرى من مسايرتهم أنه لن يجني منهم إلا الشوك أو الحصرم .. فهذه بيئة كرهها من كثرة ما علق في ذهنه من انحلالها ، وضعف غيرتها وتهاونها في المحرمات ومحاكاتهم الغرب في الشهوات والملذات والتشبه .. فمنذ عرف فوازا وعزميا وهو يراهم يتهاونون في أمور الدين ، لا يعرفون الصلاة .. ولا يصومون ، ولا يتظاهرون بالصيام ، بل يجاهرون بالفطر ، وتعاطي التبغ جهارا في نهار الصوم .. ويلحظ استهزاءهم بالمتدينين وبالدين كلما يتاح لهم المجال .. فجل حديثهم عن النجوم في السينما والرياضة وسباق السيارات وإلقاء النكت والسخرية من خلق الله .. وحول المال والأثرياء في

البلد والعالم .. والمال فتنة.. وربما دمار وهلكة على من لا يعرف إدارته والاستفادة منه .. فحياتهم صاخبة بين الموسيقى وشبه الإباحية ، ويتحدثون عن الزنا بكل أريحية وبساطة .. وليس بأنه جريمة واعتداء على أعراض المسلمات .

فلما غادر ضيوفه البيت تنفس الصعداء ، وكأن جبلا أزيح عن كاهله ، فقالت له أمه فجأة : أترغب بالزواج منها يا شريف ؟!

تطلع الشاب في عيني أمه لحظات وقال :أتزوج من يا أمي ؟!

ـ إنها جميلة !!

أخذه الضحك لحظات حتى التفت إليه والده وقال : مالكم ؟

فرفع شريف صوته وقال باسما : اسمع يا أبي ! ماذا تقول أمي ؟ تسألني هل أرغب بالزواج من ضيفتنا أخت فواز ؟ الأخت عبير .

فقال الأب : والله يا ولدي إنها فتاة حلوة ولطيفة !

ـ حتى أنت يا أبي ! ..لا يا ناس ..ءأنا أتزوج من امرأة كهذه ؟ .. إنها كارثة !!

صاحت الأم دهشة : كارثة !.. لماذا يا رجل ؟!.. جمال.. ومال .. وأخت أصحابك.

فقال : هذه يا أمي تحتاج كل يوم لثوب أو اثنين .. كل سنة سيارة جديدة .. سهرات في نوادي الطبقة الثرية ..خادمة أو أكثر في البيت .. يا أمي نحن ناس على قد الحال .. هذه أبوها مليونير

تبسمت الأم أو كأنها حالمة : ماله ! تصير مثلهم يا ولدي الغالي .. سيارة .. دار .. خدم .. بستان .. وهي عروس حلوة .

قهقهة الشاب وقال : أنا جئت بها لهنا لهذه الدار بالذات حتى تعرف من أنا ومن نحن وتبتعد عن طريقي .. كان باستطاعتي دعوتهم لمطعم فخم .. هذه امرأة لا تصلح لي يا أمي .. وقال بصوت هامس لا يسمعه والده " لو أصابني مكروه يوما لأرسلت لي ورقة الطلاق " ..

وعاد رافعا صوته : المرأة ركن مهم في البيت .. فهي عماد التربية والوفاء.. لولاك يا أماه ما حل بنا أنا وأبي وقسيم.. لربما ضعنا.

فقال ياسر : هذا من رحمة الله علينا يا شريف .. بارك الله فيك كنت نعم الابن .. وعلى ذكر قسيم هل تكلم معك ؟

وقالت حسنة : فعلا هل تحدث معك منذ ذاك الحادث ؟!

ـ يتكلم معي ؟! .. أنا منذ دخلت الكلية العسكرية لم يتصل بي ولو نص تلفون .. ومنذ ذهبت للجمعية وطلبت منهم إيقاف المساعدة ، ودعم من هم أحوج منا بها وهو لا يطيق رد السلام عليّ .. هداه الله ـ يا أمي ـ وأصلحه الله .. اسألي عنه أبناء أعمامنا الذين يعملون في المدينة شين .

١١

عندما كانت تدعى أسرة ياسر للمشاركة في مناسبة فرح أو عزاء يذهب شريف إليها تصحبه أمه للقيام بواجب المجاملة الاجتماعي نحو أقاربه وجيرانه ، كان في الحي عرس دعيت إليه أسرة ياسر، وكالعادة أخذ شريف أمه إلى دار العرس ، فتمشي الأم حيث تجتمع النساء يغنين ويفرحن ، وتشارك النساء فرحهن واحتفالهن سواء كان العرس لذكر أم أنثى ، وأما شريف فيمشى بدوره إلى الخيمة الكبيرة التي ينصبها أهل العرس للرجال يستمعون فيها للغناء الشعبي ويشربون القهوة والشاي والمثلجات ، وفي نفس الوقت يأخذ الضيوف المتجاورون باستماع أخبار وأحوال بعضهم البعض ، فأهل المدن أغلب لقاءاتهم الاجتماعية تكون في المناسبات الاجتماعية لانشغالهم بوظائفهم وأعمالهم ، فكان شريف يتحدث تارة مع الذي عن يمينه ، وتارة أخرى مع الذي عن يساره ، وربما تحدث القوم بآخر الأخبار السياسية أو غلاء الأسعار لسلع معينة ، وفي تلك السهرة جاءت جلسته بقرب أحد أقاربه ، ولما تحول شريف للحديث مع هذا القريب سأله : يا شريف .. ألم تتصالحوا مع قسيم ؟

تأمل شريف عيني الرجل الكبير لثوان وقال : يا عم لحتى الآن لم نتصالح معه فهو حردان علينا .. عامل زعلان .

ـ هذا ما سمعته من ابني همام أيضا.. فهو كما تعرف يشتغل في العاصمة ، ويلتقي به أحيانا في

المقاهي والأسواق .. قال ابني لي: إنه التقى به مرة أثناء ركوبه معه في سيارته ، ولما سأله عنكم قال له " لي أشهر لم أرهم ، فهم محاربونني "

تبسم شريف وقال : أنت تعرفنا يا أبا همام ! ونحن لسنا سوى اثنين .. ولسنا متحاربين .. فهذا غير صحيح .. بل بالعكس نحن اليوم نسعى لتزويجه ؛ ولكنه يرفض أن يتزوج عن طريق أمه .. وأنا أكثر وقتي في الجيش والمعسكر .. وإذا كان ابنك همام عزيزا عليه فليحثه على المجيء لزيارة أبيه وأمه .. ولا داعي لكل هذا التشويه والإشاعات لسمعة أهله .. عامل نفسه مظلوم وضحية .

فقال الرجل : فعلا لازم أن يتزوج قسيم يا شريف.. ولما يكون له زوجة لابد أن يلتزم بحق البيت .

ـ ساعدونا في تحقيق ذلك يا أبا همام .. سندع له بيتنا هذا ، ونرحل حتى لا يدفع إيجار سكن بس يقوم بواجباته نحو أسرته .. اسعَ في ذلك يا عم وليقم همام بهذا الأمر ما دام يلتقي بقسيم ويقابله في شوارع العاصمة

ـ سأهتم بذلك .. سأحاول التدخل في شأنكم ، وأسعى في الصلح بينكم .

ـ وأنا أكون ممنونا لك ولشفاعتك.

ـ لا شكر على واجب .. أنتم ناس طيبون .. وأبوك رجل صابر .. والبلاء من الله .. ولابد من الرضا والصبر على قضاء الله وقدره .. وأنتم من الراضين والصابرين .. ولا ينكر صبركم إلا جاهل .. وأنت ابن مبارك يا شريف .

ـ بارك الله فيك يا عم .

ثم تغير الموضوع شرقا وغربا ، ثم استأذن شريف بالانصراف ممن حوله ، ومن أهل العرس ، وكان قد أرسل طفلا يخبر أمه برغبته بالانصراف وبانتهاء المجاملة لجيرانهم وأهليهم .

تلقى شريف رسالة من عبير تحثه في خطابها بالنظر إلى المجتمع نظرة تفاؤلية أكثر مما هو عليه

الآن .. وتطلب منه أن يغير من طباعه وتقوقعه في حارته .. وعليه أن ينطلق للحياة الأرحب والأوسع ، وأن يوسع من دائرة معارفه ، ويتغلغل في طبقات وفئات المجتمع ، وتتمنى له أفضل الأوقات والسعادة .

وبالطبع هو لم يتأثر بهذا الكلام ، وهذه النصائح ، واعتبرها من الكلام الفارغ ، وأنها دعوة للانحلال ، ونبذ القيم الصحيحة والعادات الحسنة .

وبعد حين جاءته رسالة ثانية تدعوه فيها لمقابلتها مع بعض صديقاتها لتطارح الأفكار وتبادل الخواطر ، وأنها تتيح له فرصة للتعرف على الجنس اللطيف ؛ ليتعلم المزح ومخاطبة الجنس الآخر .

فكان الشاب وهو يقرأ أفكار عبير يستغرب لهذه السخافات ، وهذه الأفكار، وهذه الجرأة التي تصدر منها ، ويعتبرها من قلة الحياء والأدب ، ويتعجب من وجود بنات بهذه الأفكار والأحلام ، ويرى الانحدار الصاعق التي هوت به فتيات الأمة .

وقد لاحظ منذ تلك الدعوة الخاصة لبيته اختفاء فواز من حياته رويدا رويدا ، ولم يعد يسمع منه أحاديث الانفتاح والتطور والسهرات والمتع والكيف والمستقبل ، والسيد عزمي بدوره أخذ يبتعد عنه أيضا، وإذا التقيا في مناوبة أو في ظرف ما كان حديثهم حول العمل والمناورات العسكرية والمشاكل العسكرية والتسليح والتدريب .. وتمنى لو فعلت عبير مثلهم ..واختفت من حياته .

وخطرت لشريف فكرة الانتقال لوحدة عسكرية أخرى ، قد ضاق ذرعا بمراسلات عبير السخيفة ، وحتى من رؤية فواز وعزمي ، ويحس أيضا أنهم يضيقون منه ، وأن زمالة الكلية العسكرية قد تلاشت وهزلت .. لذلك فلما أعلن عن عقد دورة خاصة في اللياقة والأمن كان أول المنتسبين لها ، ومدة ووقت هذه الدورة شهران ، ومكان تدريب هذه الدورة يكون الصحراء ، لا إجازات فيها ، وفيها انقطاع عن العالم .. لا رسائل لا استقبالات ولا اتصال بالأهل والأولاد والزوجات إلا سماع خبر وفاة أحد الوالدين أو الأبناء والزوجات هو الذي

يسمح به.

استمتع شريف بهذه الدورة العسكرية المهمة ، رغم القسوة في التدريبات ، ساعات ركض كثيرة وطويلة، وتسلق جبال وتلال ، وأحس أثناءها براحة كبيرة رغم قسوتها ، وشعر بأنه تخلص نهائيا من عبير وفواز وعزمي ، وكلما لاح فكره نحوهم كان يستغرب من برودة فواز نحو أخته وعدم غيرته عليها ، ويتهاون في حديثه عنها معه أو مع غيره .. ويتساءل: هل سأصل ليوم أسمح لأمي أو زوجتي أو حتى ابنتي لتحتك بالرجال بدون ضوابط ؟! إنه ليوم عسير .

فواز كما عرفنا أحب شريفا منذ أن درسا معا في كلية الجيش ، وأحس بحزن لحياة صديقه البائسة ، وفكر بنقل أفكاره وعاداته للسيد شريف ، وظن أنه إذا تحسن دخله المادي ، وأصبح ضابطا سيتغير وينتقل من مجتمعه وفقره إلى حياة الانبساط والحفلات الصاخبة ، ولكنه قد تفاجأ بعناد شريف وهربه من مثل هذه المناسبات والسهرات التي يراها مهوى كل شاب من سنه ، ورأى أن أخته التي تعاونت معه قد فشلت فشلا ذريعا بجلب شريف لحياتهم ، وأنه لم يتغير ، بل ينظر لعبير نظرة احتقار، وأنها بائعة هوى ، فانسحب من حياته كما أشرنا لذلك سابقا ، ولكن الذي لم يتأمله شريف جيدا وكان يستغربه ، أن الرجل هكذا تربى ، تربى ألا يغار على لقاء أمه وصحبتها لغير زوجها .. وسهرها مع من شاءت من الرجال .. وهكذا رأى إخوته الأكبر منه وأخواته .. تصاحب هذا يوما والآخر يوما ..وعليه أن لا يتدخل في مشاكل أحد إذا لم يلجأ إليه ويطلب مساعدته .. فأصبح هذا طبعا والنظر إليه ببرود وأمر لا يعنيه .

فشريف فشل في الانتقال إلى بيئة فواز ، وأنه استساغ حياة الابتعاد عن النساء والاختلاط في السهرات والمعارف .. وأنه كما يزعم فواز يعيش في مأساته التي ستقضي عليه ويبقى في قاع المجتمع .

وعزمي يتحرك بتحرك فواز ومشاورته ، فلما شاهد قريبه يبتعد عن الالتقاء بشريف ويتجنبه ، ويعمل معه في حدود الرسميات .. هو الآخر أخذ يبتعد رويدا رويدا حتى لا يظهر لشريف

أنه مسير وتابع لفواز .. وأنه لمستقل في القرار والحركة .

فهو لم يقطع علاقته بشريف قطعا تاما ، وكلما حاولت الآنسة عبير الحديث معهما عن شريف طلبا منها أن تنساه ولا تفكر به في خيالها ، فأدركت أنهما ناقمان وغاضبان من شريف ويئسا من دمجه في حياتهما .

حاولت بالرسائل المتكررة ، ولكن الرجل لم يرد على أي رسالة ؛ كأنه لا يقرأها ، ولم يحاول مناقشتها في أي فكرة طرحت في هذه الرسائل .



١٢

لما قضى الملازم شريف دورة اللياقة والحماية أعطي إجازة ثلاثة أيام ، وقد قضى ستين يوما لم ير فيها أسرته ، فكان في شوق كبير لهم ، وانتهى من عناقهما، وتناول الغداء الذي أعدته أمه وهو يكاد يطير من السعادة برؤيتهما والجلوس معهما ، وكان يشعر بسعادة غامرة بهما ، وهما كانا كذلك يبادلونه نفس العاطفة الدافئة والمشاعر الرقيقة ، فهذه أول مرة في حياته يغيب عنهما كل هذه المدة ، ولكنه تفاجأ في آخر النهار بأن الآنسة عبير قد زارتهم وقدمت لهم بعض الهدايا من الطعام المعلب والثياب الداخلية ، فأصابه الوجوم والضيق والانزعاج فقال معاتبا لأمه : كيف قبلت ذلك يا أماه ؟!

ـ فاجأتني بهذا يا شريف !.. ولم أدر إلا وهي تدخل هذه الأشياء للبيت .. وخجلت من الفتاة وقالت " إن شريفا في دورة خاصة فقد تحتاجون لمثل هذه الأطعمة" .. وطلبت مني السلام عليك وانصرفت .

فقال بغضب : فتاة وقحة فعلا !

فقالت الأم : إنها تمدحك يا شريف ..وتثني عليك خيرا .

قال وهو يكظم غيظه : لا حول ولا قوة إلا بالله .. يا أمي سامحيني إذا ضايقتك .. أرجوك يا أمي إذا جاءت هذه الفتاة ثانية فاعتذري عن استقبالها .. فهؤلاء القوم من طينة غير طينتنا .. تخيلي يا أمي أنها فتاة تحاول الاتصال بي في العمل لتدعوني للسهر معها في مقهى أو ملهى .. أو لتناول الطعام معها .. لا حياء ولا خجل .. هؤلاء قوم أخلاقهم غير أخلاقنا.. وأنا أتهرب من اللقاء بهم .. وأنا دعوتهم للبيت كما تذكرين ليعلموا حالنا ، وأننا أناس بسطاء ، وأن حياتنا غير حياتهم .. ولا أصلح لمسايرتهم والتكيف معهم .. على كل حال انتهى الأمر .. فاستفيدي من هذه الأشياء أو تصدقي بها على الجيران هل من أخبار عن أخي الكبير قسيم ؟ هل طل عليكم خلال هذين الشهرين ؟

قالت : هون عليك يا ابني .. لا أخبار عن المحترم منذ ذلك الحادث .. كأنه ما صدق أن

يحدث له ما حدث ليخرجنا من حياته .. ذهبت لهمام لما سمعت أنه هنا وسألته عنه .. فاخبرني أنه تحدث معه ورغبه بالعودة لبيت العائلة ومصالحة أبيه وأمه .. فزعل منه وأمره ألا يحدثه بالموضوع ثانية ، وأنه لا أهل له .. وعلم منه أنه تزوج .

هتف شريف متعجبا ومستهجنا : تزوج ! .. كيف تزوج بدون أهل وأقارب ؟!

ـ زواج مخز وعار يا ولدي ! ..فعلينا أن ننسى هذا الولد العاق .

ـ من أين تزوج وكيف؟!

ـ على ذمة أبي همام .. أن هماما قال له : إنه فجر بامرأة ، وعرف أهلها بأمرهما، وأرادوا سفك دمه إلا إذا تزوجها وستر عليها .. هكذا تزوج قسيم أفندي !

صاح شريف بغضب من جديد قائلا : يا للعار!! .. يا للخزي !!

ـ هكذا تزوج يا ولدي .. بل أخبر همام والده أنها حملت منه قبل الزواج .. وهذا ما فضح الطابق .. وأرغموه على الزواج منها .

ـ يا للعار !! أعلم أبي بهذا الخزي ؟!

ـ حدثته بذلك .. فبكى .. ولكن ماذا سنفعل ؟ لزمنا الصمت .

ـ على كل حال علينا أن ننساه يا أماه ! .. لا ينفع الآن أي تقويم وإصلاح إذا صحت الرواية وهذه الأخبار المشينة ..هداه الله وتاب عليه .. وأنا قريبا سأبدأ بالبحث عن قطعة أرض في أحد أحياء المدينة الجديدة .. قد تجمع لديّ بعض المال .

قالت وهي تمسح قطرات دمع سالت على وجهها : حفظك الله لنا يا ولدي ..أتمنى لك التوفيق والخير .

ـ ربما نستأجر شقة يا أمي في مكان قريب من العمل .. فقد حان لنا أن نترك هذا الحي .

ـ وماذا سنفعل في هذا البيت ؟

ـ سنعطيه لأحد الأقارب المحتاجين له .

ـ نبيعه .

ـ لا داعي لبيعه .. ماذا سيكون ثمنه؟! .. ثمن زهيد فأعطيه لأحد الشبان المقبلين على الزواج من معارفنا وأقاربنا .

ـ كما تشاء يا ولدي ! بارك الله فيك وفي قلبك الطيب.

١٣

وقبل الرحيل من حي العمال تعرض السيد ياسر سليم لوعكة صحية ادخل على أثرها أحد مشافي مدينة البركة ، وبعد العلاجات الأولية نقل بسيارة طبية إلى أحد مشافي الجيش ، وبعد أيام من العلاج والتداوي فارقت الروح الجسد ، وتلقى الملازم شريف الأمر بقبول واستسلام لقضاء الله وقدره . وشيع الجثمان لمقبرة حي العمال ، وتقبل الشاب وجده سليم الذي يقطن عند عمه الكبير عمران وأعمامه التعازي بوالده من الجيران والأقارب من أعمام وأخوال ، والكل يوصيه بأمه خيرا .. وقام الشاب بما يلزمه من إحسان نحو أبيه ..وتصدق عنه بالمال .. وكان قد سدد كل الديون التي كانت على أبيه منذ وفق للعمل في القوات المسلحة ، وكذلك ديون أمه .

وقد شاركه العزاء الكثير من زملائه في معسكره ، وقد تلقى برقية عزاء من مكتب قائد الجيش الأكبر ، وكذلك من زميليه عزمي وفواز وشقيقته عبير .

ولما خفت آلام المصيبة وتبعاتها ، وأصبح ياسر في عالم الغيب عند مليك مقتدر أخذت الحياة تعود إلى طبيعتها ، ويسلو الحزن شيئا فشيئا من قلب شريف ، ولا تبقى إلا الذكريات بحلوها ومرها ، نشط في البحث عن شقة ، فكان يتردد باستمرار على مكاتب بيع وإيجار العقارات والشقق لاستئجار بيت مناسب .

ولما اتصل به أحد السماسرة معلنا له أنه وجد مطلبه ، فذهب شريف للمكتب العقاري وأخذ العنوان الذي هو في أقرب مدينة لمكان عمله ، ثم ذهب للشقة وشاهدها ، واستأجرها من مالكها بعد أن ارتاح لها ووقع العقد ، وما اكتمل العام على وفاة الوالد حتى كانوا يفارقون حي العمال لشقتهم الجديدة ، ويقدمون بيتهم القديم لأحد أقاربهم الذي تقبله مسرورا شاكرا

لهم ، وذرفت الأم الدموع الغزيرة على ذكرياتها في حي العمال أو شارع العمارة ..وإن كانت أيام شقاء وصبر لكنها لا تخلو من أيام جميلة .. من ولادتها فيها وزواج وولادة الأولاد .

رحلت حسنة إلى البيت الجديد ، وأدركت أنها دخلت عالم الشيخوخة ، ولقد أدرك شريف وحدتها حينما ينصرف إلى عمله ، وحينما يضطر للمناوبة في معسكره ، وكان يرى نفسه أنه غير مستعد للزواج ؛ لأنه كان يرى بناء البيت قبل المرأة ، إذا سئل عن ذلك ، وأن أكثر العرسان يسكنون بيوتا مستأجرة يقول لنفسه : لو لم يكن عند أبي بيت ولو كان قنا ، ماذا حل بنا ؟ يوم نستأجر عند فلان ، ويوم عند آخر ..الإنسان لا يعلم الغيب .. البيت يستر العورات والنكبات .

فحدث أمه بما يؤرقه من تركها وحدها ، وأنه يفكر بالتعاقد مع خادمة تساعدها وتؤنس وحدتها ، فقالت له أمه : هات لك زوجة يا ولدي بدلا من خادمة !

ـ إن شاء الله ستأتي يا أمي ..عندما يقام البيت الخاص بنا أولا .. فهذه الخادمة أمر مؤقت حتى أكون مرتاحا أثناء غيابي عنك .

عندئذ ذكرت الأم زوجها ياسرا فذرفت العين الدمع ، وأحست بالفراغ ، فقد كان رغم ضعفه ومرضه أنيس وحدتها ، وتسمع صوته وصراخه وتنشغل بشأنه ، أما اليوم فهي وحيدة البيت .. شريف ينطلق لعمله اليومي .. لذلك كانت تحب كثيرا يوم الجمعة يوم عطلته ..

وسمعت ابنها شريف يقول : سنة الحياة يا أمي الفراق! .. تذكرت أبي رحمه الله ..

قالت : رحم الله أباك ..لا يعوض عنه يا ولدي إلا أنا أرى أولادك حولي

ـ سيكون ذلك بمشيئة الله ..ابكي كما تشائين .. فالدموع تغسل الحزن والألم .

جاءت الخادمة التي لا تفقه العربية بشيء ، إنما كلمات ركيكة تعلمتها من طول خدمتها في بيوتات الناس ، وكان كل هم أم قسيم حث ولدها على الزواج والاقتران بفتاة ليملأ بيتها بالأولاد والصبية ، ثم تقول أحيانا : أين أنت يا قسيم العاق ؟! يموت أبوك ولا تظهر في عزائه .. هل أنجب أولادا يا ترى ؟!

وكلما يدخل شريف ويجلسان حتى تبدأ تشكو له الوحدة وحاجة البيت لزوجة وأولاد، وأن الخادمة لا تملأ البيت بالأنس ، فلما أكثرت الحديث بهذه الرغبة ، وأنها تحب أن ترى أحفادها قبل رحليها للعالم الآخر قال : ابحثي لي عن زوجة مناسبة لك أولا يا أمي قبل أن تكون مناسبة لي .. زوجة تحبك ، ولا أقضي ساعات راحتي بسماع شكواها وتدخلك في حياتها .

فتضحك أمه من مداعبته وتقول : وأين ستجد هذه الغادة ؟

وبعد التقاط نفس تقول : وأي بيت لا يخلو من المشاكل يا شريف ..

فقال ضاحكا : مشاكل عن مشاكل تختلف ..مشاكل تحل داخل البيت ليست كالمشاكل التي تحل في خارج البيت وفي المحاكم .

ـ لا تتشاءم كثيرا .. فالنساء خير وبركة .. أخت صاحبك فواز هل تزوجت ؟

فهم مغزى كلامها فتبسم وقال : هل تقبل أن تعيش معك يا أماه ؟..هل ستقوم تتسحر معنا يا أماه ؟ ـ كان زمن هذا التعليق موسم رمضان ـ نحن من طينة وهم من طينة أخرى .. إني أريد امرأة على شاكلتك يا أماه أو قريبا منها .. حسناء صبورة ترضى بالحياة مع أمي الحبيبة أمي هي أمها وزيادة .

ـ طيب ، ما تقول في ابنة الضابط التي أشرت إليها مرة ؟

أخذ الشاب يتذكر تلك الفتاة التي تشير إليها أمه ، وسمع أمه تقول : اسمها أسماء على ما اعتقد .

ـ ما شاء الله تذكرين جيدا يا أمي ! .. لم يحدث بعدها شيئا .. كنت يوما في زيارة لقائد المعسكر الكبير .. طلبت الإذن لمقابلة العميد الركن يحيى فأدخلني السكرتير عليه ؛ كأنه نسـي أن العميد يجلس مع ابنته .. ولما دخلت فوجئت بها يتحدثان .. فحاولت الرجوع معتذرا ؛ ولكن الرجل قال : تفضل يا نقيب شريف هذه ابنتي العزيزة .. كانت قريبة من هذه المدينة فرغبت برؤية أبيها في عمله .. وقال لها هذا المهندس النقيب شريف يا أسماء .

فدخلت يا أمي وأغلقت الباب ، وكلي خجل وقلت : تشرفنا يا آنسة .

فرحبت بي وهي تبتسم : أهلا . فأشار لي العميد قائلا : اجلس يا بني .. قال بني يومها يا أمي

فقلت : حاضر يا سيدي العميد .

وأخذت الفتاة بعد لحظات حقيبتها ، وبدأت تنهض ، فقال العميد : أسماء يا نقيب شريف السنة تنهي دراستها في كلية التربية .

فهززت رأسي وقلت : أهلا وسهلا .. تمنياتي لها بالنجاح يا سيدي العميد

ثم تفاجأت بقوله أمامها : أما زلت أعزبا يا شريف ؟

ـ أجل يا سيدي العميد .

ـ فتضاحك يا أمي وقال : ما رأيك بأسماء .. ألا تراها مناسبة لك ؟!

فضحكت وكلي خجل وقلت : والله هذا شرف كبير لي يا سيدي العميد !

وخرجت أسماء ولم تتكلم ؛ ووجهها غرق بالاحمرار والحياء مع ابتسامة صغيرة .. بعدها لم يحدث شيء .. بل انتقل العميد إلى قيادة الجيش الكبرى .

هذه ذكريات تلك الفتاة أسماء .. كل هذه تذكره شريف عندما رددت أمه اسم أسماء

فقال : إنها فتاة لطيفة كما بدأ لي .. ولكن والدها رجل فاضل .. وحسبتها دعابة وجس نبض لي ولها والله أعلم .

ـ اتصل به وذكره بك ربما مشاغله الكثيرة أنسته الموضوع .. والفتاة كانت في سنتها الأخيرة .. أعني ربما أنها غير متهيئة للزواج تلك الأيام.

ـ صحيح يا أمي وما زالت السنة الأخيرة قائمة لم تنته .

ـ حرك الماء الراكد .. أرغب أن أفرح بك يا ولدي قبل أن ألحق بأبيك رحمه الله .. وأنت لازم أن تتزوج من بنات العائلات .. لأنك كبير يا بني .. وستكبر بمشيئة الله .. وتصبح قائدا كبيرا إذا عشنا .

ـ أخشى ألا نوفق إذا تطلعنا إلى بنات الأسر الأرستقراطية .. هؤلاء يا أمي مطالبهم مثيرة وكثيرة .. وأنا أحب الراحة والسكون .. لا أفكر الليلة في مسرحية .. في فلم .. في مهرجان

غنائي .. معرض للثياب والجواهر .

ـ لا تخلو هذه الفئة ممن هم على شاكلتنا يا ولدي ..الفقر كفر يا شريف .. الفقر يذل الرجل ويقصف العمر .. ألم تر عندما كنا نحتاج لدواء مرتفع السعر ما يحل بنا من الضيق والحيرة والبحث عن دائن ؟!.. الحمد الله الذي أخرجنا من الفقر وذل الحاجة وانتظار إحسان فلان وفلان .

١٤

كان الأخ شريف يشعر ويعي الوحدة التي تعانيها أمه في البيت وحدها مع الخادمة الأعجمية ، وأن جهاز التلفزيون لا يبدد تلك الوحدة ولا المذياع ، ويعلم أن أمه لا تحب الاحتكاك بالجيران كثيرا ، وإطالة الجلسات معهن ، وهو لا يستطيع إزالتها ، ويرى السعادة التي ترتسم على وجه أمه عندما تفتح له الباب ، وهو يعلم الضيق الذي فيها من بُعد ابنها قسيم عنها ، ومن قصة زواجه المؤلمة من فتاة فرضت عليه قسرا بسبب علاقة جنسية آثمة ، ومن عدم تواصله معهم ببدنه وباتصالاته ، كان يدرك أن هذا مؤلم على قلب الأم ، ويسبب لها آلاما نفسية لا تستطيع أن تعبر عنها حتى لا تسبب له ألما وضيقا ، مضت شهور في الشقة الجديدة في مدينة لظ المدينة القريبة من معسكره ، فلما ذكرته أمه بأسماء .. أخذ يفكر بالزواج جديا وتأخير بناء البيت .. فطفقت صورة أسماء تتردد كثيرا على مخيلته ، ويحلم بأنها زوجة لها.. ويفكر بكيفية الوصول إليها .. وأنه شخص لا يحمل اسم عائلة كبيرة وعريقة في البلد مع عائلة كعائلة العميد ، ولابد أن الكثير من أبناء عائلتها ينتظرون تخرجها ليخطبوها ..وليس يملك شيئا مميزا لتقبل به وتفضله على الأقارب سوى شهادته وعمله كضابط .. فالعميد ابن عائلة كبيرة معروفة في البلاد ، وجل أقاربه من كبار الضباط والرتب العسكرية مثله .. وهل كان سيادة العميد ساخرا وهو يمازحه بهذا الزواج ؟! كيف أعرف ؟ كيف أتصل ؟!

ثم تراه مخاطبا نفسه بصوت عال : لا .. ثم يعود للتفكير والمحادثة مع نفسه : تزوج فتاة بسيطة ثقافتها بسيطة .. تتطلع إليك بأنك زوج وسيد .. وليس بالمثل ..إذا أغضبتها تطردك من

البيت ..أو ... أو ... ربما تريد ابنة العميد أن تشتغل كما تفعل بنات تلك العائلات .. ولكنها ستعمل في قطاع التدريس ..أمي .. إذا عملت ستظل أمي وحيدة حتى ولو تزوجت منها.. الأولاد .. أمي تريد الأبناء لا الزوجة ..أنا بحاجة لزوجة تستقر في البيت .. المرأة العاملة ستسبب لي المشاكل ولن تستفيد أمي من زواجي إذا أصرت الزوجة على العمل .. يا رب يسر ولا تعسر .. أنا يا رب عبدك الضعيف أعني على تحقيق هذا المأرب.. من أتزوج من أختار؟! أنا قليل الاختلاط بالأسر والعائلات.. وأمي ليس لها رغبة بزواجي من أقاربها أو أقارب أبي لم تحدثني عن بناتهم يوما .. إنها ترغب بزواجي من أسرة ذات اسم في البلد .. لقد رأت وعانت من الشقاء ، وإن عائلتنا وعائلتها لم تستطع الوقوف معنا أثناء محنة أبي .. كلهم فقراء مصروفهم على قد دخلهم.. وبما أنني تعلمت فعليّ أن أخرج من نطاق العائلة .. الفقر مر وعلقم .. ألم يقال " لو كان الفقر رجلا لقتلته؟!".. وأنا أحب أن تكون زوجتي وقرة عيني وأم أولادي بمشيئة الله مثل أمي ..ألم تتحمل مأساة أبي بصبر ورضا ؟.. إنني أسمع عن نساء يتخلين عن أزواجهن عند مرضهم المعيق عن العمل والحياة الزوجية .. وبعضهن تهرب مع عشيق لتجبره على الطلاق .. ليس كل النساء كأمي الحبيبة .

أمي .. مرض أبي وهي صغيرة السن وليس لها سوانا أنا وقسيم .. خلفت اثنين وماتا قبل ولادتنا .. وربما لو هجرت أبي وتزوجت لأنجبت غيرنا ؛ ولكنها رضيت بقسمتها وقدرها وتحملت المصيبة .. ولكنها بعدي لم تلد أحدا .. ولما أصيب أبي كنت ابن اثنتي عشـرة سنة .. هناك فترة طويلة بين إصابة أبي وولادتي ، لم تنجب خلالها أمي .. مع أن خالاتي لهن أولاد كثر .. أنا أستحي أن أسالها عن سبب ذلك .. وما زلت أستحي عن مثل هذا الاستفهام ..لابد أن العائق سبب غير شلل الوالد ..آه .. الزواج .. هل عندنا عقم ؟!



١٥

فكر شريف تفكيرا معمقا مع من يتحدث في موضوع الآنسة أسماء يحيى .. هو يعلم أنها ما زالت على مقاعد الجامعة .. وفي سنتها الجامعية الأخيرة ..هكذا فهم من حديث والدها في ذلك اللقاء الخاطف .. لقد راوده خاطر بأن تكون أنهت دراستها قبل انقضاء السنة الجامعية .. فاستعرض الأسماء التي يعرفها ويمكن أن تفيده في مثل هذا الأمر .. فلم يرسُ على بر ، ولن يفيده أحد إلا بالحديث مع نفس العميد .. وهذا أمر لا يستطيعه .. فكر أن يعرف مكان سكن العميد ، ويرسل أمه للتعرف على أسرة الفتاة ، والتحدث معهم في هذه القضية الحساسة .. فوجد نفسه لا يعرف أين يقطن العميد يحيى؟ .. ولكنه قال لنفسه : هذا سهل .. مكان السكن أستطيع معرفته بواسطة أحد الضباط الكبار .. آخذ منه عنوانه .

وعاد يساوره قلقه على أمه فيهامس نفسه فيقول : هل هي الفتاة الصالحة لي ولأمي قبلي ؟! هل يقبل والدها بجلوس ابنته في البيت لمراعاة أمي ؟ رغم معرفتي بلطفه وحسن أخلاقه معنا ومع الزملاء الضباط .. فأقول هذا زواج وليس لعبة تنس أو كرة قدم .. الزواج حياة .

ولكنه عزم على معرفة مكان البيت ، وستقوم أمه بهذه المهمة السؤال والتحري .. رفع سماعة الهاتف وطلب من عامل المقسم (السنترال) أن يصله بمقدم له معرفة به أثناء إحدى الدورات والتمرينات العسكرية ، وهو مهندس أقدم منه خدمة ورتبة طبعا .. ورحب المقدم نصار به وتبادلوا التحيات ، وسأله شريف عن عنوان العميد يحيى لأمر خاص ، وتفاجأ النقيب شريف عندما قال له المقدم نصار " إنه كان منذ أيام باجتماع ضم العميد يحيى .. وسأله عن شريف ياسر" .. فدهش شريف وقال : العميد سأل عني ؟!

ـ أجل ، وها أنت تسأل عن عنوانه ..أنا أعرف أنه يسكن في مدينة (شين) في الجهة الشـرقية ربما في حي ابن زيدون .. في بيت مستقل ليس في شقة .

شكره شريف ودعا له بخير ، ولما سمع السماعة توضع وضع هو الآخر سماعته وقال معقبا : العميد من سكان عاصمة البلاد .. حي ابن زيدون في شرق المدينة في بيت مستقل .. يا رجل

هل أنت مناسب لمصاهرة مثل هذا الرجل ؟ الزواج قدر يا شريف .. تقدم ولا توجل .. كله بأمره سبحانه .

وبعد يومين أو ثلاثة من محادثة شريف ونصار رن هاتف المكتب عنده ، وسمع مأمور الاتصال يخبره بأن العميد يحيى على الخط فرد قائلا : نعم ، يا سيدي العميد أنا شريف ياسر .

ـ أخبرني المقدم نصار أنك كنت تسأل عن عنواني هل من شيء يا بني ؟!

طبعا ارتبك شريف وضاق نفسه مع احمرار وجهه وتمالك أعصابه بسرعة وقال : شكرا يا سيدي العميد على هذا الاتصال .. كنت أفكر بزيارتك يا سيدي .. لأسألك في شأن خاص بي .

ـ ألا يمكن الحديث على التلفون ؟

ـ ممكن يا سيدي الكريم ..

ـ تفضل !

ـ أفكر يا سيدي العميد بأن أتقدم لدورة خارج القطر ، فأحببت أن أسمع نصحك ..وأنا أعيش مع والدتي وليس لها إلا أنا .. وأنا راغب بالتدريب في الخارج .. ودورات الخارج مهمة للضباط في أيامنا هذه .

ـ أحسنت ! .. على كل حال يوم الجمعة القادم كن في بيتي بين المغرب والعشاء .. ويمكنني استقبالك يا ابني للحديث معك .

ـ أشكرك يا سيدي العميد .. أشكرك الشكر الجزيل .



نزل شريف العاصمة بعد تناوله الغداء مع والدته.. فالعاصمة تبعد عن مدينة لظ ثلاث ساعات بالسيارة الصغيرة .. وبعد العصر وصل المدينة .. فذهب لأحد المساجد الكبيرة وصلى العصر .. ولما صلى المغرب بعد تفرج ومشي في شوارع العاصمة الكبيرة استأجر سيارة خاصة إلى حي ابن زيدون ، واستدل على البيت بحسن السؤال ، وهناك وجد العميد في استقباله ..وأعاد شريف شرح الوضع وغايته من الدورة الخارجية ، وشرح ظروفه وأن أمه تعيش معه وليس لها إلا هو بعد وفاة والده .

فبين له العميد محاسن الدورات في الخارج ، وأنه يكسب خبرة كبيرة مع هؤلاء الأجانب، وهم يتحلون بمهارات وقدرات تدريبية كبيرة ، ولا مجال عندهم للمجاملات أثناء الدورات إلا بحدود ضيقة ، فالاستفادة منهم محققة إذا كان لدى المتدرب رغبة حقيقية في الفائدة منهم ، فيأخذ الطالب خبرة عسكرية جيدة في حياته العسكرية ، وأما الدورات الداخلية فهي مهمة للعلاقات العامة ، وهي تظهر كفاءات الفرد في بيئته، ويتعرف عليه كبار الضباط ، ويطلعون على مواهبه ، ويستفيد الفرد منها في الترقيات العسكرية، وكلما كنت قريبا لكبار الضباط والوزراء فسيراعيك المدربون والمحاضرون لعلهم ينتفعون من قريبك الضابط أو الوزير في يوم من الأيام ، أما في الدورات الخارجية لا يراعى مثل هذا الجانب .. وبين له أن الدورات العسكرية بالجملة مفيدة وبحاجة لها الضابط النبيه .. وفي نهاية البيان قال العميد الركن : وبما أن ظروفك يا بني لا تسمح لك بترك أمك بدون رعاية.. فالأفضل أن تحرص على دورات الداخل .. ويمكنك أن تدرس دراسات عليا في الجامعات المحلية .. في التاريخ العسكري أو الجغرافيا العسكرية.. أو حتى التخصصات المدنية .

ـ أيسمح لنا بذلك ؟

ـ يسمح لك بذلك خاصة كلما ارتفعت رتبتك العسكرية .. ويمكنك التقدم لكلية الأركان العسكرية .. لتأخذ دورة أركان حرب .. المجال واسع .. والأم شيء عظيم.

ـ لا يسعني إلا أن أشكرك يا سيدي العميد على سماعك لي ولنصحك لي

وفجأة قال العميد : ألم تتزوج بعد يا شريف ؟ .. لم تتحدث عن زوجتك أمامي؟

ـ لا ، يا سيدي .

ـ عليك بالزواج .. فربما إذا تزوجت فتاة طيبة تستطيع أن تعتمد عليها إذا اضطررت للسفر إلى الخارج ؛ لأنه أحيانا يحتاج الجيش إلى إيفاد ضباط لدورات خارجية قصيرة .. وللتدرب على أجهزة حديثة .. فيلزم بعض الضباط بدون اختيار يا بني .. وإذا تعين ضابط لهذه المهمة فليس هناك مجال للرفض .. فالزوجة تهون عليك الأمر أثناء الغياب .

ـ فتيات اليوم تصعب حياتهن مع أمهات أزواجهنّ ..خاصة إذا تزوجت فتاة تحب العمل ومتخرجة من الجامعة .. إلا إذا تزوجت فتاة لم تتعلم في الجامعة .. ربما ترضى بالحياة مع أمي

ـ صحيح هذا الكلام إلى حد ما ؛ ولكن لا تخلو الدنيا من الطيبات ..وإذا تزوج الشاب من فتاة جاهلة وأمية فهذا سيسبب للمتعلم ضيقا وحرجا .. كم عمرك اليوم يا شريف ؟

ـ تجاوزت الخامسة والعشرين يا سيدي العميد .

ـ لي زميل وصديق عنده بنت حلوة مثلك.. سأحدثه عنك لعله يقبلك زوجا لابنته .. ولو كان لديّ ولد لزوجته إياها .

ـ عفوا يا سيدي أليس عندك أولاد ؟!

فقال بحزن واضح للعيان : لا يا بني ، أنا وهبت ابنة واحدة فقط ؛ ولكنها ماتت منذ شهور .

فقال : أسماء ؟! ـ نعم ، أسماء .

ـ كيف ماتت يا سيدي ؟! لم أسمع بذلك .

ـ بعد انتقالي لقيادة الجيش بأيام صدمها أحدهم بسيارته المسرعة .

بدأ شريف متأثرا للغاية ومتفاجئا وقال : إنا لله وإنا إليه راجعون .. والله يا سيدي لم أسمع بهذه المأساة عظم الله أجرك .. وآسف على تذكيرك بها

مسح الرجل دمعة تساقطت على خده وقال : الحمد لله على كل حال .. قدر الله وما شاء فعل هذا حال الدنيا يا بني .

١٦

بعد نصف الليل بقليل وصل شريف البيت ووجد أمه ما زالت في انتظاره ، وهو كان متوقعا لذلك ، فرد السلام وقال باسما : أما زلت مستيقظة يا أمي ؟

الأم كانت تحلم بأن يعود ولدها بعروسه سريعا ، تتمنى لو تفتح عينيها فتجد ابنها مع عروسه ، وهي تدعو بارئها ليل نهار بأن يسهل أمر زواج فلذة كبدها ، وآخر من تبقى لها في دنياها ، ولما أنارت النور وردت السلام وجلسوا في صالة البيت قالت : أجائع ؟

ـ أكلت في العاصمة يا أمي .

ـ إنك حزين يا ولدي !

ـ أنا حزين ! فعلا أنا حزين يا أمي ..كيف عرفت ؟!

ـ من نبرات صوتك ومن وجهك.. كأنك عائد من مأتم بدلا من عرس

ـ معك حق ؛ كأنني عائد من مأتم ..الدنيا مآسي يا أمي .

ـ ألم تذهب لمقابلة العميد يحيى وترى ابنته ؟!

ـ بلى ، يا أمي .. قد التقيته ويا ليتني ما قابلته !

وضعت الأم يدها على صدرها ، وتنهدت بعمق وهمست باضطراب : رفضك! ولماذا يرفضك ؟!

ـ لم يرفضني يا أمي ، بل رحب بي ، وكان يخاطبني بيا بني .. ولكن أسماء ماتت يا أمي !

وبكت العين ، وهتفت الأم بلوعة : ماتت !!

ـ رحمها الله .. صدمتها سيارة منذ شهور وماتت .. وجدتها ميتة.. وأنا لا أعلم .

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله .. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ..

ـ أسماء التي رأيتها مرة واحدة وحلمنا بأن تكون زوجا لنا .. ماتت !

قالت: أليس لها أخوات؟

ـ رحمها الله تعالى ..إنها وحيدة أبيها يا أمي .. ليس للعميد يحيى سواها .. لا ذكور ولا بنات

أنجبها بعد علاج طويل .

ـ يا الهي كم الدنيا ضيقة ! ..حسبنا الله ونعم الوكيل .. سبحانه يا بني في علاه .. لا يبقى إلا هو .

ـ بعدما انتقل من وحدتنا العسكرية بزمن يسير تعرضت الفتاة لحادث سير أدى إلى موتها بعد أيام على سرير المستشفى .

ـ الدنيا مليئة بالمصائب ، ومن نظر مصيبة غيره هانت عليه مصيبته .

ـ واعتذرت له عن عدم سماعي بخبر موت ابنته .. وتأسفت له عن تذكيري له بها وتجديد الحزن في قلبه .. وقال بصبر "هذا قدر الله وإرادته " .. وقبلني بكل رضا وقال يا ابني يا شريف هذا أمر ربنا.. وقد حثني على الزواج يا أماه ..وأنه سيسعى لدى صديق له ليخطب ابنته لي .. تصوري يا أمي الشجاعة والإحسان.. وقال لي: لو كان لي ولد لخطبتها له يا ولدي من كثرة إعجابه بتلك الفتاة وبأهلها .

ـ هذا رجل مفضال يا بني !

ـ وحبب إليّ بأخذ الدورات الداخلية حتى أبقى بقربك يا أماه .. مع أنه بين لي أن ميزات الدورات الخارجية أهم وأخطر وأفضل في حياة الضابط .. ولكنه قال " من أجل الأم .. تهون كل الدورات .. وحثني على الزواج وعلى الدراسة العليا كالماجستير والدكتوراه في الهندسة وغيرها مما يفسح لي المجال لإلقاء المحاضرات في الجامعات والكليات .

ـ النفس تهفو أن ترى هذا الإنسان وأحيه لمحبته لك يا شريف .

ـ عندما أسمع بمناسبة سأفعل يا أمي حتى تريه وتتعرفي على زوجته المحترمة .. وإذا قدر الله لي الزواج من ابنة صديقه لسوف ترينه ، ونتعرف عليه أكثر، ونحسن صحبته بإذن الله .

١٧

سعى العميد يحيى سعيا جادا في زواج شريف من ابنة صديقه الدكتور سمعان فارس الطبيب العامل في أحد مشافي العاصمة ، ولم يتردد شريف في قبول الدعوة من العميد للتعرف على

الدكتور سمعان والتي جرت في منزل العميد يحيى ، وقبل الشاب واسطة العميد بدون أي تردد ، ثم قامت أم شريف وشريف بزيارة تعارف لمنزل الدكتور سمعان ، وعلى أثر هذا اللقاء وافقت الفتاة على الزواج من النقيب شريف ، وتبين لشريف أن الفتاة تعمل معلمة في قطاع التعليم والتدريس ، وكان العميد يحيى يقوم بدور الوالد للعروسين .

وأعلن الزواج وحجزت صالة للاحتفال ، ودعي الأصدقاء والأقارب ، وشارك بعض أقارب شريف من حي العمال وغيره وبعض الجيران حفل الزواج ، ودعي فواز وعزمي ؛ ولكنهما اعتذرا لشريف لظروف خاصة .

وكان شريف ياسر يرى أن السعادة قد حلت عليه بزواجه من تلك الفتاة ، وفرحت بها أمه ، وارتاحت لها كثيرا ، وكانا قد ذهبا إلى إحدى المدن السياحية ليقضيا أول أيام الزواج .. فهذه عادة تسربت لبلاد العرب والمسلمين من اتصالهم بالغرب الأوروبي ، ولما رجعا فرحين للبيت في لظ فكانت أول زيارة لهما للعاصمة إلى بيت العميد يحيى ، الذي سر من هذه الحركة اللطيفة وقدم لهما التهاني والدعاء بالتوفيق ، وتمنى لهما السعادة والحياة الهادئة .

وكملت سعادة العروسين وحسنة بولادة يسرا على رأس الحول من الزواج ، ولدت ذكرا جميلا أطلقا عليه اسم ياسر من أجل خاطر أمه وذكرى أبيه .

ولا نكاد نصف فرحة أم شريف برؤية حفيدها ياسر ..هي تعلم أن ابنها قسيما متزوج ؛ ولكنها لم تحظ برؤية أحد من أبنائه ، فكانت الجدة تقوم بدور الأم من فرحها بالمولود الجديد وربما كانت عندها أحلى الساعات عندما تخرج أمه لعملها بعد انقضاء إجازة الولادة وتبقى هي ترعى الوليد .

وذات ليلة أخبرها شريف أنه قرر بناء البيت الذي أجله من أجل الزواج .. والذي خطط له منذ حياة أبيه .. فقد اشترى قطعة أرض في مدينة البركة .. ولما بدأ الفتى الصغير ياسر يخطو ويمشي كان الزوجان يتهيآن لبناء البيت بما تجمع لديهم من مال .. وقد وعده الدكتور سمعان بمساعدته وتقديم القروض اللازمة له عند الحاجة والنقص ، وألا يلجأ للمصارف والبيوت

المالية ، وكانت يسرا قد أصرت على المساهمة في البناء من مدخراتها ، فقبل شريف ذلك على أن يكتب البيت باسمهما معا

وعندما ولدت يسرا المولود الثاني كان الطابق الأول قد جهز ، ولم يبق إلا الأثاث والرحيل ، وكانت الأم قد طلبت من ابنها بأن يسمي مولوده الجديد بيحيى تيمنا بمعروف العميد يحيى ، ووجد ذلك قبولا طيبا لدى الزوجين ، ولما أخبر سمعان العميد يحيى بذلك اتصل بالزوجين شاكرا ومهنئا ، وأرسل لهما هدية مناسبة مع والد يسرا سمعان فارس .

وبعد تعافي الأم من آلام الوضع وقد استردت عافيتها ، انتقلت أسرة شريف إلى مدينة البركة في حي الأمل .

عندما ارتقى الأخ شريف لرتبة رائد في القوات الهندسية ابتعث لكلية القيادة والأركان العسكرية ليؤهل أن يكون قائدا لكتيبة عسكرية ، يُمنح عادة الخريجون بعد إتمام الدراسة بنجاح درجة الماجستير في العلوم العسكرية ولقب أركان حرب ، فيقال الرائد الركن للضابط المتخرج من كلية الأركان ، ويكون ارتباط مواد المنهاج بكليات القادة بمهمة الكلية وفلسفتها التعليمية في العمل على تخريج ضابط قادر على العمل بكفاءة في المستويات التكتيكية ، وكضابط أركان حرب عام في كافة المستويات في القوات المسلحة.

ينقسم المنهج الدراسي في كليات الأركان إلى مراحل رئيسية : المرحلة الأساسية تكون بعد تأهل الضابط لهذه الدورة ، وتكون مدتها نحو أربعة أشهر، وتشمل على المواد العامة مثل التنظيم والاستخدام، والتكتيك العام ، والتدريب ، وواجبات الأركان ، والاستطلاع ، والجيوش الأجنبية، والمدفعية، والمهندسين، والحرب الكيمائية، والإشارة السلكي واللاسلكي والشؤون الإدارية، والحرب الإلكترونية، والتأمين الفني .. ويؤدي الدارس اختباراً في نهاية تلك المرحلة .

ثم المرحلة المتقدمة مدتها حوالي ثلاثة أشهر، وتشتمل هذه المرحلة على الدراسة النظرية

والتطبيقية لمستوى اللواء في المعارك الهجومية والدفاعية والمسير والمعركة التصادمية ، وجميع الأحوال الخاصة مثل القتال في المدن والقتال في الأراضي الجبلية، والحصار، وفك الحصار، العمليات الليلية.

ثم المرحلة الراقية ومدتها ثلاثة أشهر كسابقتها، وتشتمل على الدراسة النظرية والتطبيقية لمستوى الفرقة في المعارك الهجومية والدفاعية والمسير والمعركة التصادمية والعمل كنسق ثاني للجيش.. فالفرقة العسكرية تكتل ضخم من أفراد الجيش ، فهي تتكون من عدد من الألوية ، ربما ثلاثة ، دروع أو مشاة ، واللواء يتكون من ثلاث كتائب ، والكتيبة من ثلاث سرايا ، والسرية من فصائل سوى وحدات الإسناد والخدمات الأخرى .

ثم تأتي المرحلة النهائية التي مدتها حوالي شهرين، وتشتمل على مشروع مركز قيادة خارجي مستوى فرقة ، مناقشة البحوث الماجستير ، والاختبار النهائي.

ولما أنهى الرائد شريف دورة الأركان العسكرية عين كقائد إحدى كتائب المشاة العسكرية ، وشارك في مناورة عسكرية أبدع فيها، فعين بعد انتهائها مساعد قائد لواء مشاة ، وأرسل إلى الولايات المتحدة الأمريكية في دورة عسكرية متقدمة ، قضى جزءا منها في ألمانيا ، فأصبح الأخ شريف حينئذ معروفا على مستوى قيادات الجيش العليا وكبار العارفين بشؤون الضباط ، وقد كان مبرزا في جميع مشاركاته، وبعد عودته ألحق فترة بالقيادة العسكرية لبلده للاستماع لعدد من المحاضرات التثقيفية والتوجيهية ، وبينما هو يسمر ليلة في نادي ضباط القيادة مع الزملاء من وحدات الجيش المختلفة ، سأله أحد الضباط القريبين منه من قادة كتائب الدروع : هل لك يا أخ شريف أخ اسمه قسيم ياسر الكمن ؟

لم يرد شريف على الفور بل حدق في عيني زميله متفاجئا من الاستفهام، ثم قال ببطءٍ كأنه يتذكر أن له شقيقا بهذا الاسم : قسيم !! .. قسيم ياسر الكمن.. أين التقيت به ؟!

ضحك الضابط : لم ألتقِ به ، ولم أره يوما .

ـ نعم ، أنا كان لي أخ اسمه قسيم ..

ـ ميت ؟!

قال : لأ ، لي أكثر من عشر سنوات لم أره ..طردني وأنا أعوده في المستشفى المصاب فيه .. تعرض لحادث ضرب من بعض الناس ، ونقل للمستشفى ولما زرته طردني ، وطلب مني أن لا أسعى لرؤيته .. وأساء للأسف لي ولأمي .. في قصة طويلة .. وهجرنا ، ومن ذلك الحين لا نعرف عنه شيئا ..حدثني عنه .

ـ قسيم ياسر الكمن شقيق لك .

ـ نعم .. هذا اسم أخي الأكبر المختفي منذ عهد ليس بالقصير .. أين سمعت عنه يا سيدي ؟!

ـ ربما خمس عشرة سنة لم تروه ؟!

ـ ربما كل هذه السنوات .. لقد نسيناه كما نسينا يا رجل.. مات والده ولم يحضـر جنازته ، ولم يشارك في العزاء .. قصة مرة !

ـ على كل حال .. هو الآن في السجن .. متهم في قضية قتل .

بهت شريف وهتف للمفاجأة : قتل !! .. يا الهي !

ـ لي أخ من جيلي ضابط أمن في السجون .. جرى حديث بيننا ، وذكرت اسمك أمامه ذات ليلة .. فقال لي " عندي في السجن شخص اسمه قسيم الكمن.. ذكر لي مرة أن له أخا ضابطا كبيرا في الجيش اسمه شريف الكمن " .. فلما ذكرت اسمك أمامه تذكر ذلك السجين .. وذكر ذلك السجين .

ـ كيف جريمته ؟!

ـ لا أدري بالضبط كيف تفاصيلها ؟.. ولكني فهمت من أخي أنها جريمة قتل ، وهو شريك فيها .. وكأن الجريمة قتل زوجته .

ـ زوجته المقتولة !! .. يا الهي ! .. إذا علمت لي تفاصيل الجريمة .. ولم يكن في هذا إزعاج لك فأرجو أن تعرفني بالتفاصيل ، قد أتمكن من مساعدته بشـيء أو بمحامي .. وسألخص لك فصلا من سيرته يا رائد سمير لتتضح الصورة لديك .

اختصر شريف قصة أخيه قسيم للضابط سمير الذي قال معقبا على ما سمع : مات أبوك وهو عليه غاضب!.. هذا عاقبة العقوق يا شريف.. ثم يتزوج بغي!.. معذرة مما تفوهت به .

ـ لا عليك ، هذا هو الصواب .. هذا ما نقل لنا من قريب لنا اسمه همام كان يلتقي به في العاصمة .. بعد حادثة المستشفى التي ذكرتها لك لم يأت بيتنا في حي العمال .. ولما دخل والده المستشفى طلبت أمي من همام أن ينقل إليه مرض أبيه ..ولم يأت .. ومات أبونا وهو يرفض المجيء لرؤيته .. وهذه المرة الوحيدة التي أسمع عنه خبرا بعد وفاة أبي رحمه الله تعالى .. وهذا المستقبل الرديء كنت أتوقعه له .. وهذه عاقبة الشر عامة !

١٨

وفي اللقاء التالي الذي جمع بين شريف وسمير قال الأخير : لقد جاء أخي بملخص القصة يا أبا ياسر .. واعلم أولا أن أخاك له خمس سنوات في السجن ..وهو محكوم بخمس عشرة سنة مع الأشغال الشاقة .. وهو مشارك في الجريمة مع أخوين لزوجته .. وقد قتل معها رجل آخر .. كان موجودا معها في البيت ..أنا آسف .

قال شريف : لا عليك .. هذا نتيجة سوء الاختيار .. هذا واقع حدث فهل نهرب منه ؟.. فأخي فاسد وفاشل .. وقد حاولنا تقويمه وإعادته للأخلاق الحسنة .. لكنه كان معتدا مغرورا بقوله وأفكاره .. تابع

ـ القضية يا سيدي كما فهمت من أخي .. أن زوجة أخيك امرأة فاسدة من قبل الزواج منها .. سجل لها الأمن قضايا أخلاقية قبل لقائها بأخيك قسيم .. ولكن لما كشف إخوتها علاقتها الجنسية بأخيك وكانت حاملا .. ألزموه بالزواج منها وهددوه بالقتل .. وهم معروفون بالشراسة والإجرام .. فرضخ للتهديد وتزوج الفتاة ، وعاش معها كزوجة شرعية .. ومع غيرها من بنات الليل والزانيات .. وقد ثبت عليه أنه كان يأتي بالعشيقات للبيت على سمع وبصر زوجته .. ويطردها ليعاشر عشيقاته في بيتهم .. بل سمح لبعض الناس باتخاذ بيته للدعارة ، كما تكشف ذلك أثناء التحقيق في الجريمة .. بل تكشف أيضا عن دعارة جماعية

كانت تحدث في غرفة نومه ..حتى أن بعض إخوة زوجته شاركوا في مثل هذه القبائح والمفاسد .. رياح انحلال الحضارة الغربية يا سيدي وصلت إليهم في الانحلال والفجور.

ـ حسبنا الله ونعم الوكيل ، هذا ما يكسبه الناس من مشاهدة أفلام الجنس والإباحية ، التحلل من الأخلاق .. أمر فظيع يثير الاشمئزاز والقرف في النفوس الحية! ثم ماذا أيضا ؟!

ـ وكانت زوجته أمام هذا الواقع المتحلل والوقاحة تتخذ بدورها العشاق وتحضرهم للبيت في فترة غياب رجلها عن البيت .. فهو كما أخبرتني يعمل سائقا على سيارة أجرة .. وهو عندما حدثت الجريمة كان يعمل في نفس هذه المهنة .

ـ صحيح .. مأساة !..فعندما تذهب الأخلاق والمروءة .. فيهون عليه كل شيء .

ـ ثم أحس أخوك أو قد اخبر أن زوجته تفعل ما يفعله من ورائه ، وأنها تخونه في وسط بيته.. فحدث بعض إخوتها بذلك الأمر ، فرفضوا أن يصدقوه وزعموا أن أختهم شريفة مع علمهم بقصة زواجها منه ، وإنما يريد التخلص منها لدعارته وفجوره .. وأكدوا له أنها بعد زواجها هدأت وعقلت وصلحت .. واتفقوا أن يعملوا لها كمينا قبل أن يطلقها كما هدد .. فيبدوا أنه بعد معاشرته لهم عرف نقاط ضعفهم .. فاستقوى عليهم بتهديده ، ووافقوا على خطته .. خرج كعادته في الصباح للعمل ، وبعد ساعة عاد ومعه اثنان من إخوة البنت ، وتسللوا للغرفة فوجدوا المرأة عارية والرجل العشيق مثلها مضطجعين على السرير يأكلون بعض قطع الشوكولاتة أمام هذا المشهد المثير قتلوهما بالسكاكين على الفور.. وسلموا أنفسهم للشرطة.. هذه هي القصة يا أبا ياسر .

خيم الوجوم على شريف والحزن ثم قال : قصة محرقة وكلها خزي!.. هل لأخي أولاد من تلك العاهرة ؟ . . أوصل لمسمع أخيك شيئا من ذلك ؟

ـ نعم ، وتوقعت سؤالك عن ذلك ، وعلمت من أخي أن لهم ولدين فقط .. ولكنهما لم يكونا يعيشان مع والديهم ، كانا عند أم زوجة قسيم .. كان أخوك يضربهما ويسيء إليهما ويتهمها بأنهما ليس منه .. فأخذتهم جدتهما لأمهم ، وهم عند مقتل أمهم كان أحدهما في العاشرة

والآخر يزيد عنه بسنتين ..

ـ أيحتاج الأمر لمحامي بعد كل هذه السنوات ؟

ـ الحكم صدر والتنفيذ جارٍ .. وإعادة المحكمة لا تفيد شيئا لأنهم اعترفوا بجريمتهم وأدينوا وهم لم يأخذوا حكم إعدام لأنها تعتبر من قضايا العرض والشرف .. وهم لم يأخذوا حكما مخففا بشكل كامل .. إنما خفف عنهم الإعدام والمؤبد ..

فتبسم شريف وقال كأنه متهكما : أين الشرف ؟! لقد حاولت أمي تقويم هذا الإنسان .. ولكن الدموع لا تقوّم الرجال يا أخ سمير .. حاولت إبقاءه في المدرسة .. ولكنه أصر على الفشل ، وأن الأسرة بحاجة لمن يعيلها ..فأصبحت الأسرة تعيله وتراعيه لعله يعود .. ولكن دون فائدة وهاجر للعاصمة للمال والعمل الأكثر .. حقيقة سيرة لا تسر أيها الصديق .. الحمد لله على كل حال ..لابد من زيارته .

ـ الزيارة مسموح بها وحسب المواعيد المقررة .. وسأحدث أخي ليرتب لك زيارة خاصة .. هل ستأتي أمك معك ؟

ـ لم أحدثها بشيء بعد ولن أروي لها شيئا مما سمعت وبعد زيارته لسوف أطلعها على شيء من قصته .. فهو ابنها لابد أن ترى ابنها العاق .

ـ سأكلم أخي بموضوع زيارتك وأنا آسف لإزعاجك بحديث أخيك .

ـ بل جزاك الله خيرا .. نحن لنا سنوات وسنوات لم نسمع عنه شيئا أكيدا .. فهذه القصة لم نسمعها من أحد غيرك ..هو أخي ولكنه كان بعيدا عن كل معارفه من أهل البركة .. كانوا يلتقون صدفة في السيارة في الشارع في المطعم .. ولو عرفت هذه القصة لأهل البركة لنقلت لأمي من قريباتها .. أو لعلهم عرفوا وصمتوا لخروجنا بعد موت أبي من بينهم .. ولكني أذكر أني تزوجت منذ عهد قريب ..ورأت بعض الجيران فالراجح لي أنهم لا يعرفون .

١٩

كانت حسنة أم قسيم تعرف متى يكون شريف منزعجا وقلقا من شيء يخص البيت والأسرة من النظر في وجهه وعينيه؟!.. فمنذ أيام والرجل يخفي ألما وحزنا ويبدوان واضحين على قسمات وجهه ، وكان يلزم الصمت وهي تنتظر أن يتكلم كعادته التي تعرفها فيه ، وظنت في نفسها أول الأمر أن بين الزوجين مشكلة خاصة ، فظلت محافظة على صمتها حتى طفح الكيل كما يقال ، فقالت لكنتها يوما : إنني أرى أبا ياسر منذ أيام مشغول الذهن يا أم ياسر هل من شيء يقلقه ؟!

فقالت يسرا : وأنا مثلك لاحظت ذلك ؛ ولكنه صامت ، وقلت لنفسي ربما هناك شيء في العمل .

ففرحت الأم بهذا الرد وقالت والسعادة تطل من عينيها : خشيت يا ابنتي أن يكون بينكم زعل شيء .. فلم أحب سؤاله عن ذلك .

ـ أبدا يا أمي .. كسائر الأزواج تحدث بيننا مماحكات خفيفة نسيطر عليها فورا ونتمالك أعصابنا .. أنا سعيدة جدا بزوجي وهو نعم الرجل

ـ وأنت نعم الفتاة والزوجة .. سعادتك هي سعادتي .. ولسوف أسأله الليلة فأنا أعرف ابني عندما يكون متضايقا من شيء خاص بنا.. بالبيت .. فضيق العمل ومتاعبه اعتاد أن ينساه بعد خروجه من مكان عمله .. لأنه يعتبر ذلك من لوازم العمل مهما كان .. قد لاحظت ذلك منذ أسبوع فاستحييت أن أحشر نفسي بينكم

ـ أبدا ..أنت أم رائعة ! واحشري نفسك بيننا ..عِشرة سنوات يا أمي .. اطمئني ليس من سوء بيني وبين العزيز شريف .. كلنا عيوب .. لا يخلو منها البشر !

ـ أنت بنت فاضلة ، وأنا أقدرك وأحبك كثيرا .

ـ أعلم ذلك الحب يا عمتي .. وأنا سعيد جدا بوجودك معنا .. فأنت نور حياتنا وبيتنا.. ولا أشعر بأي ضيق نحوك ..وأنا لن أجد حماة مثلك .. وأمي وأبي دائما يثنيان عليك الثناء الجميل

ويمدحان أخلاقك .

قالت : بارك الله فيك يا بنية ، وبارك الله في أهلك .. وجزى الله العميد يحيى خير الجزاء أن اختارك قرينة صالحة لشريف .

ـ نعم الصديق لأبي .. فكان كلما يراني يقول مبتسما " آه ، يا يسرا لو عندي ولد لكنت أفضل زوجة له بإذن الله " .. فسر أبي لما رآه يتدخل في زواجي ، وفاجأنا حقيقة باختياره يا أمي .

ـ الحمد لله .. الحمد لله .. بوركت يا ابنتي .. سأتكلم مع شريف ؛ لأنني لا أحب أن أراه منزعجا .. يبدو لي أنه عرف شيئا مزعجا عن أخيه التائه .. وقسيم ليس وراءه إلا الأخبار السيئة .. هداه الله .

ـ افعلي كما تشائين يا أمي الطيبة .. حتى أحفادك الأعزاء يحبونك أكثر منا .. لقد تعلقوا بك .

ـ حفظهم الله .. إنهم أولادي يا عزيزتي .. أنا حرمت من الذرية قبل مرض أبي قسيم .. حملت مرتين بعد ولادة شريف وأسقطت الحمل بعد شهرين تقريبا من كل حمل .. ثم علمت أن عندي مشاكل داخلية لا تسمح لي بالحمل وتحتاج إلى علاج مستمر والنتيجة غير مضمونة .. فرضينا بقسمة ربنا واكتفينا بشريف وقسيم الذي لا نعرف عنه شيئا منذ سنوات .

اطمأنت وارتاحت الأم حسنة على أن الزعل المرتسم على وجه ابنها لم يكن بينه وبين زوجه ، فقد وضعت في قلبها أن لا تتدخل بين الزوجين مهما حدث ، ومهما سمعت إلا إذا طلب منها الطرفان أن تتدخل ، ولكن الفتاة كانت طيبة وتحسن معاشرتها ، ولم تتبرم يوما من مشاركتها حياتهم ، وتتعامل معها كأم ثانية لها ، لذلك كان الاحترام بينهم متبادلا ، ولم تنظر يسرا لنفسها بأنها ابنة دكتور وعائلة غنية ، فهي تتحمل مسؤوليتها كاملة ، وتعرف لكل ذي حق حقه ومقامه .

والأم حسنة منذ دخل ابنها شريف الكلية العسكرية اعتبرته رجلا ، ولم تحاول التدخل في خططه وتفكيره إلا إذا فتح لها قلبه وأحب سماع مشورتها فكانت تتكلم وتبدي مشورتها

ورأيها ، وشريف كما مر معنا في الصفحات السابقة قد تحمل المسؤولية بقوة ، وعلم المطلوب منه لتسير السفينة بكل سلام وأمان .

وكانت مشاكل الزوجين والحياة الزوجية واختلاف وجهات النظر بينهما تحل داخل غرفة النوم بالتشاور وسعة الصدر ، وفهم كل منهما طريقة تفكير الآخر ، ووعيا قول النبي ﷺ (كلكم راع ومسؤول عن رعيته) .. ولم يتخلل حياتهم لحتى الآن مشكلة معقدة وكبيرة ، ويسرا سمعان استوعبت أم شريف وارتاحت لها .. فمشت الحياة هادئة منسابة كالماء المنهمر في نهر هادئ ، وكانا لا يتحدثان في مشاكل عملهما أمام بعضهما إلا في القليل النادر ، وخاصة شريف لأنه يعمل في مؤسسة مهمة، وليس من المستحسن ذكر قضاياها وهمومها أمام الناس .

لذلك لما رجع ذلك المساء ، وكانت الوجبة الرئيسية عندهم وجبة العشاء ، لأنه في فترة الغداء يكون في عمله ووظيفته ، وهم يحبون الاجتماع على المائدة ، فلما لبس ملابس البيت وصلى صلاة العصر ـ لأن الصلاة تدركه وهو في الطريق ـ التف الجميع حول المائدة المستقرة في المطبخ .. ولما ترفع الصحون والأوعية يتحولون إلى صالة البيت أو ما يسمى الصالون ..فتقدم لهم الخادمة الشاي ، وتضع أمامهم الفواكه ، فإما يتفرجون على برامج التلفزيون ، أو يتحدثون بما عندهم من أخبار الأهل أو ما قرأ أحدهم من خبر مثير في الجرائد .. وعند صلاة العشاء .. يذهب شريف للمسجد القريب إن وجد في نفسه خفة ونشاط بعد وجبة العشاء الدسمة في الغالب .. أو يصلي في البيت إذا كان مثقلا من الطعام .. ثم تقدم لهم القهوة في الصالون .. أو في أماكن تواجدهم لأن الأخ شريفا أحيانا كثيرة بعد صلاة العشاء يدخل المكتبة الصغيرة التي كونها في منزله فيصلي فيها العشاء ويبقى جالسا فيها ، فتأتيه القهوة تحملها زوجته أو أمه أو الخادمة .. فيتحدثون قليلا ، ثم يتركونه يقرأ .. ومكتبته هي مكتبه في البيت .. وتخرج الأم إلى الصالون لتشاهد مسلسلات التلفزيون أو تستمع لمحاضرة أو ندوة .. وأحيانا تجالسها يسرا وأحيانا أخرى تبقى فريدة وحدها لاشتغال يسـرا بتحضير دروس مدرستها أو تصحيح كراسات الاختبارات .

ذاك المساء الذي حسمت حسنة فيه قرارها بمفاتحة شريف بالذي يضايقه فلذلك بعدما انتهى شريف من صلاته وطلب القهوة قالت له أمه هامسة : مالك يا شريف ؟!

ـ مالي !!

ـ لا يخفى عليّ حالك !..أهناك شيء عن قسيم ؟

ـ قسيم !!

ـ نعم ، لي أيام ألحظ حزنك وضيقك وأنت لائذ بالصمت لا تنفس عن نفسك .. والسرحان واضح عليك .. ولما تأكدت من عدم وجود شيء بينك وبين يسرا .. قلت الأمر يهمني أنا .. ولا يهمني في هذه الدنيا إلا أنت وأخوك .

نظر شريف إلى أمه وهو متعجب كما يقولون من حاسة الأم وابتسم ورد : أنا أعلم أنك تحبين الحديث معي من أيام .. عشرة عمر يا أمي .. تهمين بمفاتحتي بأمر ثم تكفين .. وأنا لم يكن لدي المعلومات الكافية .. فمثلك متردد في إسماعك أخبار أخي قسيم .

ـ أشركنا في همك يا ولدي .

ـ الهم يا أمي هو قسيم .

ـ ماله ؟!

قال : وصلني منذ أيام مضت أخبار سيئة عنه .

ـ مات ؟!

ـ أتخيل لو مات لوصلنا الخبر أسرع .. لا ، لم يمت ولكنه كميت يا أمي .. أيحتمل قلبك أخباره يا أمي ؟

ـ سيحتمل ، فقلبي تعود على تحمل المآسي يا شريف .. هكذا حوادث الدنيا بين نعم كبيرة ، ربما لا يحتملها القلب ، وبين نقم ونكبات يحتملها القلب .. تكلم .

قال : آه يا أماه! .. يجب أن أتكلم .. قسيم في السجن منذ سنوات .

ـ في السجن !.. وهذا الذي يضايقك .. وهل هذه أول مرة أسمع أنه في السجن يا أبا ياسر ..

رجل عاق لوالديه أين سيكون ؟

ـ سمعنا من قبل مثل هذه الأخبار ؛ ولكنه هذه المرة مسجون بقتل زوجته .. وضعت يدها على صدرها وتابع شريف كلامه : ألم تسمعي أبا همام يخبرنا يوما أنه تزوج رغم أنفه ؟

ـ سمعت ، قال لي ذلك العم أبو همام .

روى لها شريف ما سمعه من الضابط سمير ، ولما انتهى قالت : لا حول ولا قوة إلا بالله .. هذا يا بني نتيجة المشي في طريق الضلال والزيغ ، والمشي مع أولاد الفجور والحرام والنساء الفاجرات .

لم تبك أم قسيم كما توقع شريف ، ولكنه أدرك الحزن الذي يغمر قلبها ، وتساءل "هل مات حب قسيم من قلبها أو ضعف؟ " ثم قال بعد فترة صمت : طلبت من صديقي الرائد سمير أن يؤمن لي زيارة خاصة عن طريق أخيه الضابط في السجن .. ولما كلمه الضابط محمود أخو سمير برغبتنا بزيارته ، وأننا قد علمنا بحبسه حديثا ، قال للضابط بغضب : هم لا يعرفون أنني مرمي هنا منذ خمس سنين .. كل البلد تعرف أنني مسجون " .. فأكد له الضابط جهلنا ، وأنه لم يرسل رسالة يخبرنا بها ، وأننا لا نعرف عنه شيئا منذ خمس عشرة سنة ..فقال لصديقنا " هؤلاء كذبة فجرة .. هم يعرفون كل شيء ؛ ولكنهم يستعرون مني .. لا أريد رؤية أحد منهم .. أنا لا أعرفهم ".. فقال له الضابط : " استقبل أمك وحدها " .. رفض يا أماه .. ولما أخبره الضابط بموت أبيه قال " سمعت " وسب أباه وشتمنا جميعا .. وما زال الضابط يحاول إقناعه بلقيانا .

ـ لا تحزن يا ولدي .. فقسيم منذ رحل من البركة تغير وقسى قلبه .. كان لا يأتينا إلا إذا احتاج لمال أو لم يجد أحدا يطعمه .. لقد غرق في الفساد وشرب الخمر وارتياد دور البغاء .. يعود إلينا ليس للسؤال عن أحوالنا وحاجتنا ويعطينا .. يطل ليأخذ فأعطيه بعض الدنانير فيعود من حيث أتى .. لقد نصحت وبكيت أمامه وترجيته أن يمشي على الطريق السوي على الصراط المستقيم وأن والده غاضب عليه .. فلم يهتز له شارب ، ويقول إذا لم نتمتع بشبابنا

متى سنتمتع ؟!.. عندما نشل مثل أبينا .. فألزم الصمت راجيا ربي تغيير الحال .. لكن الحمد لله ـ ورفعت يديها إلى السماء ـ الحمد لله .. الله عوضني بك خيرا .. وها هو وحده أكرمنا بأم ياسر البنت الحلال الأميرة الرائعة .. اجعلها في بؤبؤ عينيك يا شريف .. قسيم لا تشغل فكرك فيه .. انتهى من حياتنا كما يحب هو .. دع عنك الحزن يا شريف .. فقد تعودنا على غيابه .. حسبنا الله ونعم الوكيل .

٢٠

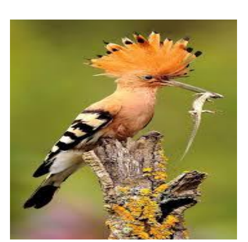
سعى شريف بعد فشله بلقاء أخيه للوصول إلى أبناء أخيه بمساعدة الضابط محمود أخو زميله سمير، فسأل الضابط محمود قسيما عن مصير أولاده ، ولماذا لا يأتون لزيارته ؟ فرد قسيم عليه بجفاء" إنهم ليسوا أولاده ، وإنهم يحملون اسمه كرها وغصبا عنه " عندما كان ضعيفا وجبانا عندما استسلم للزواج من أمهم رغم أنفه ، وذكر له أن المرأة الخائنة إذا خانت مرة استمرأت الخيانة ، وعندما وصل هذه الكلام لأشقاء زوجته المقتولة ، رفاقه في السجن والحكم ، نشب بينهم صراع وتهديد بالقتل داخل السجن ، حتى اضطرت إدارة السجن إلى نقل أشقاء المرأة إلى سجن آخر.

فشل شريف من مشاهدة أخيه ورفضه لزيارته رغم كثرة المحاولات والشفاعات ، ولم يفصح عن مصير أولاده للضابط محمود ، سعى الضابط محمود لمعرفة مصيرهم بواسطة دوائر الأمن الأخرى ، وتبين لهم أنهم كانوا يعيشون مع جدتهم أم البنت المقتولة التي وضعتهم بنفسها في بعض دور الأيتام ، ولما تبين لهم أنهم ليسوا بأيتام أعادوهم للمرأة الجدة ، ولعدم اهتمام الأم والأب بهم أخذتهم جمعية تبشيرية ، وفي الحقيقية تنصيرية ، وقامت على رعايتهم فترة من الزمن ، ثم أخرجوهم من البلاد بدون علم أحد .. وثبت لرجال الشرطة أنهما لم يقتلا ، وإنما تم تصديرهم لدول النصارى وخاصة أمريكا الشمالية لحياة أفضل من حياتهم هنا بعد أن نبذهم أهلوهم ، وقد غيرت أسماؤهم وأصبحوا نصارى بعد تعميدهم كعادة النصارى .. وإلى هنا وقفت تحريات البوليس ، وتركت للأهل إقامة دعوى طلبهم وإعادتهم ، ولكن الأب

يرفض ويصر على البراءة من أبوتهم ، وأمهم هالكة .. فلزمت الشـرطة الصمت .. وكان قسيم مسرورا لاختفائهم من حياته للأبد .

وتألم شريف وأمه لهذا المصير السيء للطفلين ، وليس باستطاعتهم فعل شيء أمام عناد قسيم وسروره بهذا الأمر ، كما أعلن لهم الضابط محمود ذلك .. وما دام الأهل لا يستطيعون تقديم قضية للمحاكم المختصة .. فالحكومة ليست ملزمة في متابعة الموضوع ورفع قضية للمحاكم الدولية .. لأن الأمر سيبدو أمام المحاكم باختيار الوالدين ، ولم تكن هناك عملية بيع .. وصدم شريف من تخلي أخيه عن ولديه بسهولة وقال لنفسه مواسيا : " هو أعلم بهم ..وإنهم لا يحملون سوى اسمه .. قد يكون هذا صحيحا !"

وبعد حين من الألم والضيق رجع الهدوء لبيت شريف ، ولكن ظل يراودهم الأمل بأن يطلب قسيم لقاءهم والاجتماع بأمه .. وخرج قسيم من السجن بعد قضاء مدة الحبس كاملة ، ولم يحن لصدر أمه ، ولا لأخيه ، وظل مكابرا ومصـرا على عدم رؤيتهم وسماع صوتهم ومعانقتهم.



انتقل الأخ شريف للعمل في قيادة الجيش في قسم إدارة مشتريات الأدوات والمواد الهندسية في الجيش خاصة الوحدات الهندسية ، وكانت الحياة العسكرية تسير على خير ما يرام ، ولا تخلو الحياة بالطبع من المنغصات المعتادة من مشاكل العمل ، ومن موت صديق أو رفيق أو حتى من مرض الإنسان نفسه أو أحد أفراد أسرته .. لابد من هموم وغموم وأحزان هكذا سنة الحياة .. وحتى صاحبنا شريف نفسه دخل المستشفى العسكري عدة مرات لعلاج مرض عارض أو قلع ضرس أو لإجراء فحوص طبية .. ولكن بالمجمل كانت حياته رتيبة وطيبة بفضل من الله ﷻ .

وبعد حين يسير من عمله في قسم المشتريات عين مساعدا لمدير القسم الهندسي في القوات المسلحة كلها، وكانت بين يديه صلاحيات وأعمال كثيرة ، منها متابعة التدريبات والصناعات الهندسية داخل مصانع الجيش ومعسكراته ، الحرب الكيماوية ، الجسور الخاصة لسير الدبابات وناقلات الجنود عليها، وهندسة المتفجرات والألغام ، وبعض المحاضرات في كليات الجيش وأسلحته المختلفة.

وعلى حين غرة جاءته رسالة من أخيه قسيم ، وكان قد علم من بعض معارفه في الأجهزة الأمنية والشرطية بخروج أخيه من السجن ، وتفاجأ حقا من خطاب أخيه الذي جاءه على قيادة الجيش .. وكان فيه إخباره بخروجه من السجن ، وأنه ما زال يكرهه ، ويتمنى له التعاسة والمصائب والموت ، وبين السبب الذي دفعه لكتابة هذه الرسالة وهو المطالبة بميراث أبيه .

ألقى شريف الخطاب أمامه على المكتب ، وابتسم استغرابا وقال : ميراث أبي !! ميراث أبي !! هل ترك أبي شيئا ؟! .. حسب علمي أن أبي مات ولم يترك شيئا .. لم يدع وراءه درهما ولا دينارا .. ليطالب به هذا المجنون .. من قال له إن أباه ترك ميراثا ؟؟

وعاد وتابع قراءة الرسالة التي وجدها مليئة بالسب والتهديد إذا لم يحصل على الميراث المزعوم وتفاجأ في نهايتها بوجود رقم هاتف يمكنه الاتصال عليه لتسوية الميراث .

أعاد قراءتها ثانية وقال لنفسه : إنه بحاجة لفلوس ..أنا على استعداد لمساعدته إذا تعهد بالتوبة والأوبة .

ورفع سماعة الهاتف واتصل بالرقم الموجود على الورقة ، فوجده محل بقالة صغير في قلب العاصمة ، ولما أخبره الرجل أن أخاه ليس قريبا منه ، وعده بالاتصال ثانية في الساعة الثانية ظهرا ، فلينتظر مكالمته .

وما كاد يترك الهاتف حتى رن فرفعها ثانية وقال : نعم .. أهلا فواز .

فواز : هل صحيح أنه ثبت تخابر لعزمي مع جهة معادية ؟

ـ أنت أدرى يا أخي .. ألست في قسم الأمن العسكري ؟

ـ أنا أختي عبير حدثتني بذلك ، قالت إن زوجها عزميا مشتبه به في قضية أمنية ، وإنها علمت ذلك من قسم الهندسة حيث تعملون ؟!

ـ على كل حال أنا سمعت مثلما سمعتم .. ولكن ليس لدينا أوراق رسمية في عملية تخابر مع جهات معادية لمهندسي القيادة .. هل تحدثت معه ؟

ـ ممنوع الاتصال به .. هو موقوف في قسم مكافحة التجسس العسكري .. لقد توقعت وأملت أن يكون لديك المزيد من المعلومات .. رغم خطورة ما تحدثنا به .. فمعذرة وشكرا لك .

عندما وضع شريف السماعة عاودته الذكريات القديمة أيام تعرفه على عبير التي أصبحت فيما بعد زوجة لصديقه عزمي ..ورغم معرفة عزمي بأسرار عبير .. فقد تزوجها بعدما تركها زوجها الأول الذي طلبت منه الطلاق قبل أن تكتمل السنة الأولى للزواج .. فتقدم لها عزمي وقبلت به وتزوجا ..

وتذكر أنهم ابتعدوا عنه بعد زيارتهم لبيته أيام حي العمال في مدينة البركة .. وتذكر بعد ذلك أن الأمن العسكري اشتبه بعزمي هو ومجموعة من الضباط بالتخابر مع جهات أجنبية والعمل لصالحها داخل قيادة العسكر .. وهو يعلم أن الأمر لا يعدو سوى تحقيقات أولية .. ولم تكشف كل الخلية .. وقد لا تحدث محاكمات .. فهو يعلم أن بعض الضباط تستهويهم الاتصالات الخارجية للحصول على جنسيات أخرى ، والرحيل لتلك البلاد عند التقاعد والانصراف من حياة الجيش .. للحياة في بلاد الأجانب .. فتراهم يتهاونون في نقل أسرار الجيش وصفقات السلاح لتلك الدول طمعا بجواز سفر أجنبي .

ولما بلغت الساعة الثانية بعد الظهر اتصل شريف بالبقالة وعرف بنفسه ، وسمع البقال ينادي على أخيه قسيم فقال : أهلا يا قسيم .. الحمد لله على السلامة .. السلام عليكم .

ـ لا سلام ولا كلام .. أنت عدو لي .. أنا مضطر للحديث معك .. أريد حصتي من ميراث

أبيك ياسر.

ـ رحمه الله .. يا رجل قبل ميراث أبيك ..اسأل عن أمك.. التي ربتك وعانت من أجلك ما عانت وما زالت ، والتي كانت تصرف عليك من المال الذي كانت توفره .

ـ أنا لا أم لي ولا أهل .

ـ ليس لك أم ولا أهل ، ولماذا تطلب ميراث أبيك ؟.. إذا كان له ميراث

ـ أبي لم يقف ضدي ولم يعادني .

ـ أنت عاديت نفسك .. أنت عدو نفسك .. لنتقابل لنعرف هذا الميراث المزعوم الذي تطالب به .. أمك حسنة رغبتها أن تراك قبل أن تموت

ـ أنا أريد فقط ميراث أبي .

ـ وهل تأخذ ميراث أبيك على الهاتف؟.. تعال على القيادة .. سأنتظرك على الباب وندخل النادي الخاص .. ونتحدث عن ميراث أبيك ..وما هو ميراث أبيك ؟.. ذكرني به ؟

ـ ما زلت لا تعرف الميراث يا حضرة الباشا ؟ .. ميراث أبي يا حضرة الباشا .. الدار .. ألم يترك أبي لنا الدار ؟ .. وقد بعتها لفلان من الناس .

ضحك شريف وقال : بعتها !! .. هكذا قالوا لك .. لابد من المقابلة للحديث بموضوع الدار



٢١

انتظر شريف أسبوعا كاملا ليتصل به أخوه قسيم وآخر ولم يحدث الاتصال ، وكلما تحدث مع البقال أخبره بأنه لم يره منذ حين ، فأخذ منه عنوان البقالة ، وزار المكان وتعرف على البقال ، وسعى لرؤية أخيه أكثر من مرة ؛ ولكنه لم يوفق إلى ذلك ، ونتيجة لهذا الغموض زار شريف صديقا له من كبار ضباط الأمن والشرطة ، ومن رجال البحث الجنائي ، وفاتحه بموضوع قسيم ، وأعلمه شريف بأن هذا الرجل شقيقه، وطلب منه أن يساعده باللقاء به ، فأخبره الضابط أن هذا الرجل معروف لدى دوائر الشرطة وأنه سجين سابق.. ولكنه تفاجأ بأنه شقيق له ، فأطلعه شريف على طرف من حكايتهم ، ووعده الضابط أن يسأل له عنه قائلا : إذا عرفت عنه شيئا سأخبرك بك .

ـ اتصل يا سيدي على مكتبي في قيادة الجيش .



كان شريف يعتقد أن أخاه بعد خروجه من السجن بعد كل هذه السنوات خلف القبضان سيعود للطريق السوي ، وأنه أخذ درسا مفيدا من قضائه كل هذه المدة وراء القضبان ، وسيترك الفجور ، ويكف عن الشرور ، ويبدأ حياة جديدة ، فكان يطمح بأن يساعده ماديا ومعنويا ، ويعينه على الزواج من جديد لعل وعسى .. ويصفى قلبه تجاه أمه وأخيه ، وبعد محادثته لقائد البحث الجنائي العام ، تلقى اتصالا من العميد دبور فقال لشـريف : بعدما عرفتني بأخيك بل على اسم أخيك .. وبينت لي رغبتك بمساعدته على ابتداء حياة نظيفة وجديدة وإبعاده عن حياة الضياع .. وأنا مهتم بأمره يا سيدي !

ـ لك مني أفضل الشكر ، وجزاك الله خير الجزاء يا سيدي .. أحب أن أخلي ذمتي نحوه .. وهو أخي مهما انحرف وضل .. وتلزمني رعايته إذا تعاون معي ورغب بحياة صافية هادئة.. فهو الآن بلا زوجة ولا أولاد .. ولا مأوى .

ـ جميل منك هذا أيها الأخ الكريم !.. ضابط كبير مثلك يفعل ذلك أو يسعى لذلك فهذا نبل نادر .. فبعض الناس ربما يستعر من ذلك ويخفيه .. المهم أنني قمت بالاتصالات اللازمة والدقيقة .. فتبين لي أنه بعد تاريخ مكالمتك معه خرج من البلد .. قد سافر لجزيرة قبرص.

ـ سافر ؟!

ـ نعم ، بعدما أطلق سراحه وقضاؤه مدة الحكم ، جدد جواز سفره ، وهو غير ممنوع من السفر فقد قضى محكوميته كاملة.. وهو غير مطلوب للإنتربول الدولي ، هو قد كان مجرما محليا وغير متابع دوليا.. وعلمت ذلك من رجالنا في المطار لأنه سافر جوا ، وقد كان بصحبة فتاة اسمها أو تسمي نفسها " نبيلة زوف " يبدو أنها أجنبية متعربة .

ـ والفلوس ؟!

ـ السجن يا سيدي العميد يسمح للسجناء بالعمل داخله .. ليعيل نفسه وأسرته إذا كان متزوجا ..وفي السجن يتعلمون الحرف والمهن المختلفة حتى إذا خرجوا منه ، وأحبوا الحياة الكريمة يكون لديهم حرفة يعملون بها .

ـ ما العمل الآن يا سيدي العميد ؟

قال : عندما يدخل البلد بإذن الله تعالى سأتحدث معك ، فقد طلبت من رجالنا المساعدة في هذه الخدمة لحضرتكم ..وأنا أقدر شجاعتك وحبك لأخيك رغم سمعته السيئة .

ـ جزاك الله كل الخير .. هذا واجب عليّ .. لا تنسى يا سيدي الاهتمام بهذه المساعدة .

ـ توكل على الله تعالى .

ولما وضع شريف سماعة الهاتف علق قائلا : سافر للخارج !.. ماذا يفعل في قبرص ؟! .. هل ذهب يبحث عن أولاده ؟ وإنما هجروا لأمريكا .. ومن هي نبيلة زوف ؟! .. والله إني راغب

في إنقاذه والوقوف بجانبه ، ما تبقى لنا في هذه الحياة الدنيا !..ألا يحب حياة السكون والحياة الوادعة الطيبة ؟ .. قبرص يا قبرص !! إنها جزيرة في البحر الأبيض المتوسط .. هل سيشتغل هناك ؟

٢٢

ذات نهار وصاحبنا شريف مشغول الفكر بسفر أخيه إلى جزيرة قبرص التي قسمت إلى دولتين قبرص التركية وقبرص اليونانية ، وما زال الصراع بين تركيا واليونان على تلك الجزيرة التي فتحها المسلمون في خلافة أمير المؤمنين عثمان بن عفان ﷺ أخبره سكرتير المكتب أن امرأة ترغب في مقابلته ، فقال دهشا: امرأة ! .. كيف وصلت إلى هنا ؟

ابتسم السكرتير وقال : زوجة أحد الزملاء .

ابتسم هو الآخر بدوره وقال : آ .. فهمت فلتتفضل .

فلما دخلت المكتب تفاجأ شريف حقا بها ، فهو منذ عهد بعيد لم يرها إنها السيدة عبير أخت فواز وزوجة عزمي ، فنهض عن كرسيه محييا ومرحبا ومشيرا لها بالجلوس على أحد المقاعد ، فلما جلست رحب بها ، وقرع جرسا فدخل عامل الخدمة للمكتب قائلا : سيدي !

ـ حسن .. انظر الأخت الكريمة ماذا تشرب ؟ أنا أعرف أنك تحبين القهوة .

قالت باسمة : لم تنس بعد !

فضحك وقال : وكيف أنساك يا سيدتي ؟!.. وأنت أول امرأة اقتحمت حياتي ..

ـ أول امرأة ! .. ألم تتعرف على فتيات المدارس أيام المراهقة ؟

ـ لم أتعرف .. وكنت أنت أول امرأة تعرض صداقتها عليّ ورفضتها .. أنا لم أعرف هذا الذي يسمونه الحب والعلاقات العاطفية .. أحسبه عبثا يا سيدتي عبثا!.. وعندما درست في كلية عسكرية كانت النساء فيها قلة ، ولا يسمح بالعلاقات العاطفية بين المجندين والمجندات .. وأكثر الطالبات من أبناء كبار الضباط .. ومن الصعب أن يغامر ضابط في تلك الأيام وهو تلميذ مستجد .. أهلا وسهلا

قالها عندما دخلت القهوة ووضعت أمام السيدة ، وانصرف حسن ، ورشفت المرأة رشفة ، ونظرت في عيني شريف الذي كان يراقبها أيضا ، فابتسمت ووضعت الفنجان قائلة : كيف زوجتك المدرسة والأولاد ؟.. لقد نسيت اسمها .

ـ لا حرج ، ليس مهما أن تتذكري اسمها ؛ ولكنها كانت الزوجة اللائقة بشخص مثلي .. يا سيدتي !

ـ والأم الفاضلة ؟

ـ كلنا بخير .. والحمد لله .

ـ رائع يا سيدي! أنا جئت أتحدث إليك بشأن صديق أو أخ لك كان اسمه عزميا.

ـ وما زال صديقا وأخا .

ـ نعم .. رفيق سنوات الكلية والجيش وهو زوجي كما تعلم .

ـ أعلم ، وكان بودي يوم زواجكم أن أشارككم الحضور بشخصي .. لكن كان عندي يومها ظروف شرحتها للزميل عزمي .. أكيد أنك جئت من أجل عزمي.. وليس من أجل رؤيتي.. ماذا تريدين مني ؟

ـ أرجو أن استفيد من هذا اللقاء .

ـ ما الذي ترغبين معرفته عن الزميل عزمي ؟ أنا قد فوجئت حقيقة بزواجه منك يا أخت عبير .

تبسمت وهي ترد : وأنا نفسي فوجئت بخطبته لي .. وكنت خارجة من زواج فاشل فقبلته على الفور دون تردد .. لا أدري لماذا ؟! كأني خشيت أن أظل أحمل لقب مطلقة .. جئت أسالك أيها الصديق القديم .. هل حقا عزمي جاسوس ؟!

بحلق شريف لحظات في سقف المكتب وقال لها ببطء : وماذا قال لك الأخ عزمي عندما سمحوا لك بمقابلته ؟

ـ وتعرف أنني قابلته ؟!

ـ هذا جيش يا أخت عبير .. والمقابلة مسجلة .. والسماح بزيارة مشتبه به في قضية خطيرة في الجيش ليس سهلا .. ولولا أخوك فواز .. وابن عم أبيك اللواء المتقاعد ما تمكنت من مقابلته قبل تقديمه للمحكمة العسكرية .. ودخولك عليّ معلوم لأمن الجيش .

ـ نفى أن يكون عميلا لأي جهة .

ـ رغم الخطر في هذا الموضوع هنا ، وحساسية القضية يمكنني أن أقول لك أن الأخ عزميا لم يثبت عليه التجسس لحتى الآن .. هو كان في المكان الخطأ والأصحاب الخطأ .. للأسف بعض ضباطنا لما يكونوا في دورات خارجية يختلطون إلى نساء تلك الأمم .. وبعضهم يتصرف بغير مسؤولية ، ويقع في الشهوات والسهرات غير الآمنة .. ويظن أحدهم أنه قائد الجيش الأعلى والأكبر ..ويعود لبلده ليعمل كمخبر أو عضو في شبكة تجسس .. وهنا يعاد تأهيلهم وإعادتهم للصف الوطني والمخلص للوطن .. وأولئك يجندونهم بذكاء .. فالبعض يجند تجنيدا كاملا للعمل مع العدو .. والبعض الآخر يوهم بأنه مجند لتضليل أمن البلد .. فالأخ عزمي لحتى الآن يا سيدتي لا يعرف موقعه في الشبكة التي قبض على الكثير من عناصرها .. فقبض بالخطأ على البعض في اجتماع سري أم هو مجند حقيقي وأنا لم اطلع على ملفات التحقيق ، وذلك ليس من اختصاصي .. ولكن بحكم مركزي الإداري أسمع .. فأنا لا أستطيع أن أنفي عنه الجاسوسية ولا أستطيع إثباتها .. ولكن عندي أمل كبير أن يكون بريئا .

ـ عندك أمل حقيقي ؟.. أم تريد أن ترفع من معنوياتي يا سيدي العميد !

ـ صدقي يا سيدتي لو كان في هذه القضية مجال للشفعة والوساطة لساعدت الأخ عزميا للصداقة القديمة بيننا .. ولكن في هذه القضايا لا يصلح التوسط قبل إنهاء التحقيق والمحاكمة .. فعليك بالصبر والتحمل ، ولا أقول لك كفي عن السعي في معرفة موقفه وحقيقة دوره مع احترامي للجميع .. فالأخ عزمي كان صاحب شراب وشره في ذلك .. وهذا لا يصلح أن يكون عميلا .

وقالت : أشكرك أيها العميد .. وكلامك واستقبالك لي .. وشجاعتك تؤكد لي أن معدنك

أصيل ، وأنك أهل للوفاء .. وأبارك للأم التي ربتك ، وسلم عليها أحلى السلام ، وكذلك زوجتك العزيزة .. فأنت خدمتني أكثر من أخي فواز .

ـ لا تعتبي على أحد .. ففواز موقفه دقيق أيضا .. فهو قريب عزمي وأخ زوجة عزمي ..لا تنسي ذلك .

قال : هذا ما ردده أمامي .

ـ كان الله في عون الجميع .

ـ شكرا مرة أخرى .. ونهضت مغادرة ، ووقف صاحبنا محييا ، وقد ضغط جرسا فدخل السكرتير فقال له : أوصلها إلى الباب يا سيدي الرائد .

كان منزل الأخ شريف في مدينة البركة يعج بالأنوار والأعلام والألوان والصياح ، كان الرجل يحتفل بتخرج ابنه الثاني يحيى من الجامعة فرع الآداب متخصصا في اللغة الفرنسية ، ولقد كان المجال أمامه مفتوحا للعمل في محطة التلفزيون الوطنية في قسم البرامج الفرنسية ، والذي شجعه على دراسة اللغة الفرنسية خاله العامل في تلك المحطة والحامل لنفس التخصص ، بل تلقى الشاب وهو في السنة الأخيرة للدراسة عرضا للدراسة في فرنسا للحصول على الدراسات العليا ، وفي أشهر جامعتها السوربون ، أما الابن الأول فكان يدرس في كلية الطب ولم يتخرج بعد ، فالطب يحتاج لسنوات أكثر من الآداب ، وكانت الجدة حسنة تجلس في الحفل كالعروس بين النساء من قريبات وجيران ، وهي فرحة وتغمرها السعادة والحبور، وهي تتودد لجاراتها القديمات من نساء حي العمال ، ولأخواتها وبناتهن ولقريبات وأخوات زوجها ياسر، وكانت تهمس في أذن أخت زوجها التي كانت تجاورها في البيت القديم ، وتستعين بها لرعاية شقيقها عندما تذهب لعمل ما : كنت أتمنى أن يشاركنا هذه السعادة أخوك ياسر رحمه الله .. لكنه سبقنا إلى رحمة الله .

تساقطت دمعات على خد الأخت وهي تقول : يا ليت !.. لكن كان الموت رحمة الله له .. ما عند الله خير لعباده .

كان شريف رغم المنصب العسكري الذي ارتقى إليه يصل الرحم خالاته وعماته وأعمامه وأخواله وبعض جيرانهم ، ويشارك الناس أفراحهم وأتراحهم كلما تيسر الأمر له ، وإن لم يستطع بنفسه كان يرسل أمه ، ومرات يرسل معها زوجه ، فالواجبات الاجتماعية كان يحب المحافظة عليها قدر المستطاع ، ويراها من الأعمال الموروثة والطيبة ولا يجب التهاون بها ، وعوّد أبناءه على ذلك .

وهذه الحفلة قام بها رغبة لأمه ولزوجه وبعد تشاور قبل فعل هذا الحفل ، وتم تزيين البيت بالأنوار ودعوة الناس إلى حديقة بيته الكبيرة .. وتم تقديم الطعام والشراب الطيب للناس .. والشاي والقهوة .. وكان شريف يستقبل زواره من الضباط في الجيش والشرطة والطيران ويرحب بهم أحسن الترحيب .. وكانوا يحيون ليلة من العمر .. فالفرح والسعادة لحظات تعبر في حياتهم يكسبونها من مشاكلهم وأشغالهم في الصراع في هذه الدنيا من أجل التقدم والتطور والمستقبل .. وبعد نصف الليل بساعة انتهى الحفل بنجاح يحيى .. ثم قام العمال المشرفون على الحفل بتنظيف المكان ، وسحب المقاعد وإنزال الأعلام والرايات ، ومع بواكير الفجر اختفى كل شيء كأن لم يكن هنا سهرة واحتفال .. وبعد انصراف العمال دخل العميد إلى حجرته لعله ينام ساعة أو ساعات ؛ ولكنه لم يكد يخلع ثيابه التي كان يستقبل بها ضيوفه حتى ارتفع صوت الأذان في المسجد القريب مناديا لصلاة الفجر.. فاستعد لذلك ، وانطلق لصلاة الجماعة كعادته ، ولما دخل المسجد وجد أبناءه الثلاثة في صحن المسجد ينتظرون إقامة الصلاة فقال لنفسه : الحمد لله الذي وفقني لتربية هؤلاء الشباب .. ورحم الله من فقدنا من الأبناء .

هو فقدهم أثناء فترة الحمل ، لم يفقدهم بعد الولادة ، وأحس أنه قام بواجبه نحو أبنائه بتوفيق وفضل من الله ﷻ .

٢٣

دخل شريف مساء ذات يوم حجرة أمه داعيا لها إلى طعام العشاء ، ففوجئ بها تبكي وتتنهد فاستغرب وقال قلقا : أمي ما يبكيك ؟!

مسحت الدموع التي أبت الانقطاع وقالت من خلالها : أهلا بك يا شريف يا قرة العين .. تذكرت أباك المسكين رحمه الله .. لو قدرت له الحياة لهذا الحين لرأى ما نحن فيه من نعيم الدنيا .. وتذكرت أخاك العاق ..

همس شريف متأثرا : رحم الله أبي الرحمة الواسعة .. ما عند الله ﷻ هو الخير كله .. ونعيم الدنيا زائل ومخلوط بالمنغصات والآلام يا أمي .. لا تحزني يا أمي .. دائما الخيرة فيما يختار الله لنا آلاف الناس إن لم يكن ملايين يموتون وهم فقراء.. هذه سنة الله في خلقه.. يولدون فقراء ويهلكون فقراء .. الله هو الذي يقول " { نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} " .. وأما الأخ قسيم .. أنت تعلمين يا أمي كم سعيت للقياه! .. وقد تمنيت أن يكون بيننا .. توقعت أن يعود من السجن لنا للحضن الدافئ .. حضن أمه ..وكنت أنوي شراء بيت له وتزويجه من امرأة صالحة .. ليبدأ حياة جديدة ..وأن يكون قد استفاد من حياة السجن والحبس .. لكنه كما أخبرتك سابقا خرج من الوطن كله ، هاجر لقبرص مع امرأة روسية أو أرملة روسية .

عادت الأم تتنهد وتمسح العينين وتقول : رغبت برؤيته وأن أعانقه قبل موتي .. أحس أن أجلي قد دنا .. وانتهت رسالتي في هذه الحياة ..

ـ أطال الله بقاءك يا أمي .. حتى تقر عينك برؤية قسيم وأحفاده إن شاء الله .. والأمر لله من قبل ومن بعد .. الهم الذي عندك عليه هو عندي .. هو أخي يا أمي .. ونحن فتحنا له صدرنا منذ عهد بعيد .. ولكنه اختار الدرب المؤلم درب العذاب والشقاء .. ماذا يفعل في قبرص؟

ـ رضي الله عنك يا ولدي الغالي .. هيا بنا إلى الطعام فإنهم ينتظروننا .. كنت أنت العوض يا ولدي أنت البر ..أنت العزيز الغالي على قلب أمك .. مات أبوك وهو سعيد بنجاحك وكبر

عقلك ومعرفتك لطريقك .. مات وهو راض عليك كل الرضا .. وكان يقول " إذا مت مت وأنا مطمئن عليك يا حسنة .. فولدك شريف رجل بمعنى الكلمة" .. احتضن شريف أمه وذرفت الدموع وهو يقول : أنتم كل دنياي يا أمي .. لقد كان الألم يعتصر قلبي كلما أنظر لأبي الإنسان مسكين عندما يصبح ضعيفا لا حول له ولا قوة .. لولا الإيمان لهلكنا .

ـ سامحني يا بني على لحظات الضعف التي تنتابني ..

ـ ابكي يا أمي كما تشائين .. لو تدمع عيناي على أخي لتركتها تهطل الدمع ليل نهار .. السعادة الكاملة لا تتم إلا إذا اجتمع شملنا بأخي قسيم .. هداه الله .

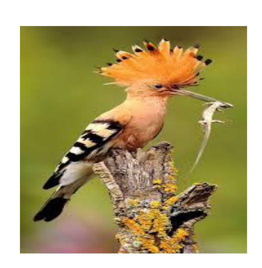
قالت : رفع الله من مقامك يا ولدي .

ـ بارك الله فيك يا أمي! .. لا تظني أن منصبي يجعلني استعر من عودة قسيم إلينا .. أبدا يا أمي .. وربما قريبا أحال على التقاعد .. فأنا على وشك إنهاء ثلاثين سنة خدمة في القوات المسلحة .. فقد حان لي أن أستريح فلكل بداية نهاية .. الحمد لله الذي وفقنا وأتم عليّ النعم بالزواج والأولاد والأم العظيمة والزوجة الطيبة .. إنني سعيد بكم جميعا .

ـ ما أخبار والدة زوجك ؟

ـ هي بخير ، وستخرج قريبا من المستشفى ، تعرضت لجلطة قلبية خفيفة .. أو بداية جلطة .. وهي بخير وتسلم عليك وتطلب الدعاء لها منك ومن الأولاد .

ـ وهبها الله الصحة والشفاء .



٢٤

كان الأخ شريف يدرك إدراكا تاما أن الأم مهما جفاها ابنها وعقها تُكن له الحب والشوق ، هذه هي الفطرة التي فطرها الله ﷻ عليها {فِطْرَتَ اللهِّ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا }وكيف بقسيم وهو ابنها البكر وأول فرحة لها بالأمومة والنضج ؟.. وكان حزينا لضياع أخيه ، ومن ترديه في مهاوي الفسق والشهوات المحرمة ، ومن سلوكه السيئ لنفسه أولا ولوالديه ثانيا .. لقد كان من أعماق قلبه يتمنى أن ترى الأم ولدها القاسي القلب قبل مغادرتها الحياة من فوق الأرض وكلكم يذكر الجهود التي بذلها لزيارة أخيه في السجن واللقاء به أو بأمه ، وذاك القسيم يرفض بإصرار وعناد ، وخشي أن ينفذ تهديده بالانتحار إن اقتربا من السجن عنوة .

كان قسيم ياسر ينظر إليهما كأنهما سبب شقاوته ومعانته وفجوره ، غير مبال بعاطفة أمه نحوه فهم اجتهدوا وسعوا لمساعدته وانتشاله من أوحال الضياع ، وهو غير حان لأمه ، وغير عابئ بحنان الأم .

هو الذي ترك مدينة والديه راحلا للعاصمة باختياره طامعا بفرص عمل أكثر ومال أكثر.. مع أنه كان بإمكانه العمل سائقا عند أصحاب السيارات وخطوط النقل في البركة .. فأمه هي التي دعمته بالمال المتوفر لديها ليتعلم القيادة بعد فشله في احتراف أي حرفة .

هذا كله أيضا يتذكره شريف بينه وبين نفسه ، ويتعجب من قسوة قسيم ، وكان يتوقع أن يطلب لقياهم وهو يقبع في السجن ، ويفتح معهم صفحة جديدة وحياة جديدة .. وكان يمني نفسه أن يقدم له شيئا ماديا يعيد الصفاء لأمه المهمومة عليه ..عادت به الذكريات لأيام مرض والده .. وتذرع قسيم بضعف أبيه ورغبته بترك المدرسة ؛ ليكون سيد البيت والمعيل للأسرة .. فعمل نجارا .. وعمل حدادا .. وعمل في تركيب المواسير التمديدات الصحية ..والتدفئة المركزية ..ومع البنائين .. لم يعرف الاستقرار في مهنة .. ولا حتى مع الباعة .. حتى حصل على رخصة القيادة .. فظن أنه أصبح قائد طائرة بوينج .. ثم هاجر لعاصمة الأحلام .. ولم يرسل شيئا من المال للأسرة القلقة بحجج كثيرة ..ومع ذلك كان يستقبل ويرحب به كأن

شيئا لم يحدث وليس مطلوبا منه شيء .. أين عداوتنا له التي يزعم ؟! .. رفضي لأموال الزكاة لأن حاجتنا إليها انتهت.. ولكن قلب الأم مليء بالعطف والحنان والحب .. مهما فعل الابن .. قد يبدو قاسيا في لحظات معينة ولكنها لحظات خاطفة قصيرة .. وتجلت قسوته عند وفاة أبيه لم يحن لأمه ويشفق عليها تلك الساعة .. يا إلهي رحماك !

وأنا مهما أساء لي لا يهم ، أما أمه وأبوه لا يصح .. يا الله ارحمنا ! .. أبي مات بحسرة .. كان يسأل عنه كلما عاد لوعيه في أيامه الأخيرة .. هل جاء العاق ؟! هل أتى العاق ؟! ..كان يرغب برؤيته وهو يغادر الدنيا .. يراه وهو يحتضر.. ورغم الرسائل التي كانت ترسل إليه من أبناء الحي والأقارب .. كان لا يعيرها أدنى اهتمام ..وها هي الحبيبة التي أحببتها الحب الكبير تردد نفس الأمنيات .. يا الهي لا تحرمها من رؤية الولد العاق قبل مغادرتها دنيا الأحياء .. سأعاود الاتصال بالزميل دبور مدير البحث الجنائي .. يجب يا قسيم أن تأتي لترى أمك .. لتعانقك يا قاسي القلب .. أنت زعلان مني ..أمك لماذا تزعل منها ؟! وتسبب لها كل هذا الألم والحزن .. يريد المجرم أن يرتكب جريمته وبوائقه ولا يعاتبه أحد .. وينكر عليه تلك الأفعال .. يريد أن يقتل ولا يعاقب بالسجن أو الإعدام

بعدما تذكر هذه الصور والمشاهد التي مرت بهم دخل مكتبه واتصل بالضابط دبور مذكرا له بنفسه ، فأكد له الرجل أنه لم ينسه ، وما زال يذكره ، وما زال يتابع وعده، وسوف يعاود الكرة الليلة بالحديث مع زملائه في المطار ، وحتى مع نقاط العبور البرية والبحرية ، فشكره شريف وقال : إنها رغبة أمي العجوز أن ترى ابنها قبل الموت .. واعلم يا صديقي أنني أكون أسعد إنسان لو تحققت هذه الرغبة لنا .. لها أكثر من عشرين سنة لم تره .. ابن عاق جاحد .. لا يعرف ما في قلب الأمهات .

٢٥

كل متابعات العميد دبور كانت نتيجتها سلبية ، فمنذ غادر الرجل البلاد جوا لم يعد إليها بعد ، ووعد العميد شريفا بالاستمرار في الانتظار ، ووضع اسمه على قائمة المطلوبين لمراجعة الأمن عند دخولهم البلاد ، وتسمي العامة هذه القائمة بالقائمة السوداء ، وذهب شريف بزيارة خاصة لزميله في دائرة البحث والتحري الكبرى ليشكره على تعاونه ومساعدته ، ومن ثم قص عليه بعض قصته مع شقيقه قسيم .

واتفق شريف على دعوة زميله إلى غداء في أحد صالات الفنادق الكبيرة ، ورفض اعتذار الرجل وأصر على ذلك الغداء ، وغادر مبنى الدائرة آملا بسماع أخبار من جزيرة قبرص ، فمدير الدائرة وعده بالاتصال ببعض زملائه في قبرص ، ووفى بوعده فاتصل بالعميد شريف وأخبره أن أخاه قد انتقل إلى اليونان ، وأنه قضى أسبوعين في قبرص فقط ، فاعتذر شريف عن إشغاله صديقه بقضية خاصة، فرد العميد دبور : أتخيل أنني أقدم خدمة لأمي يا أبا ياسر .. الأم غالية عندنا .. فتحياتي لأمك وسلم عليها سلاما خاصا مني .. والأمر بيد الله ﷻ وأرجو أن يعود الرجل وما زالت أمك على قيد الحياة وبصحة جيدة إن شاء الله .

فسر شريف لهذه الكلمات وقال : إنني عاجز عن شكرك يا سيدي العميد

وبعد هذا الاتصال بأسابيع اتصل العميد دبور ليلا مخبرا السيد شريفا بدخول أخيه قسيم قبل دقائق البلاد ، وأنه سمح لشرطة المطار بعدم توقيفه ، وأنه غير مطلوب للبوليس وأن المطلوب مراقبته فقط ، وأخبره أنه قادم من إيطاليا وبصحبة تلك المرأة الأجنبية، وأن رجالنا شاهدوه يركب سيارة أجرة لقلب العاصمة ، ولسوف نعرف مكانه فيها بعد .

ـ شكرا لكم جميعا .. عسى أن نعرف أين استقر ؟ ولسوف أذهب لبيته وأتواجه معه لعله يلين ويرضى بزيارة أمه قبل فوات الأوان .

وفي اليوم التالي لدخول الرجل البلد ، وبعدما قام شريف ببعض واجبات العمل وانتصف النهار تحدث مع ذلك البقال الذي وصله بأخيه يوما .. ولكن البقال خيب ظنه وأخبره أنه منذ

زمن طويل لم يره وعلم أنه مسافر .. فأدرك شريف بأن أخاه لم يمارس مهنته بعد .. وأن عليه أن ينتظر أياما لعله يظهر قبل أن يلجأ للشرطة من جديد .. وتساءل من جديد : من هذه المرأة التي صحبها لأوروبا وعاد معها ؟! هل تزوجها ؟ لابد أنها من غواني البلد .. فالطيور على أشكالها تقع ..أليس هكذا يقول هذا المثل ؟ .. سنعيد الكرة مع هذا البقال .. وأعاد الكرة خلال الأسبوع عدة مرات .. والرجل يؤكد له عدم عودته للعمل على خط السير .. وأن رفاق الخط يؤكدون عدم مجيئه من السفر

فوضع السماعة بحدة وهو يقول : هل يرفض الحديث معي هذا اللعين ؟ فيطلب من البقال إنكار وجوده .. سنعود لرجال الشرطة هم الأقدر على الإجابة .

من أجلك يا أمي سأفعل كل شيء .. ولن اهتم بهذه النجوم المعلقة على كتفيّ .



٢٦

وبينما السيد شريف يسعى ويجد للقاء أخيه العائد من أوروبا كلفته القيادة بالسفر في رحلة مشتريات للقوات العسكرية ، وبزيارة معارض عسكرية في أنحاء متفرقة من العالم ، وذلك ضمن لجنة شكلت لهذا الغرض ، وهذه اللجنة أحيانا تستغرق شهورا وهي تدور في المعارض العسكرية ، وتتجول في مصانع الأسلحة العالمية لعقد الصفقات ، وتتكون اللجنة من عدد كبير ومتنوع من الضباط للشراء وشحن الصفقات للبلاد .. فرافق الرجل اللجنة مندوبا عن سلاح الهندسة العسكرية .. والرجل متفان في خدمة وطنه وجيشه، ومنفذا لكل ما يطلب منه بدون تردد .. ربما تكون هذه المرة الوحيدة التي تمنى فيها أن لا يذهب في هذه الرحلة الطويلة للمشتريات والتجوال .. وفكر في الاعتذار ؛ ولكنه لم يعتد على هذا التخلف والاعتذار عن أي مهمة توكل إليه .. ولكن حلمه بأن ترى أمه أخاه العاق كان يلح عليه بالاعتذار .. وأمام الواجب الوظيفي ورغبة قائد الجيش على سفره .. رضي بمرافقة البعثة العسكرية ، ولم يبدُ عليه أي اعتراض، وإن بدا مهموما وقلقا على غير العادة التي يعرفه عليها كبار الضباط مما دفعهم عن الاستفسار عن سبب هذا الهم والحزن .. فتظاهر بكبر السن وضعف أمه وخشيته من موتها أثناء هذه الرحلة .

هم يمرون على المعارض التي دعوا إليها ، وقد يعقدون صفقات شراء بعض الأسلحة التي راقت لهم وهم يزورون أيضا مصانع لعقد صفقات توريد أسلحة وقطع غيار .. واستمر هذا العمل ثلاث أسابيع على الأقل في كل دولة قبل أن ينتقلوا لغيرها .. وربما يسبق بعضهم بعضا لمشاهدة عرض في أحد المعارض قبل إغلاقه مع أن معارض الأسلحة ربما تطول مدة العرض فيها عن المعارض الأخرى كالكتب والثياب وغير ذلك .

لقد كانت هذه الرحلة من أصعب الرحلات على نفسية صديقنا شريف خاصة .. ففي الرحلات السابقة كان يصاب بالفرح والسعادة ، وكان أحيانا يسعى إليها بنفسه .. ففي هذه البعثات تغيير روتين .. سياحة في الأرض .. فائدة مالية خاصة ..فيستمتع المكلف بمشاهدة

بلدان العالم وعادات الشعوب المثيرة للدهشة .. ومن عادة السائح التردد على الأماكن المبهجة للنفوس .. ويرون ما صنعه الإنسان على مدى التاريخ ويرون الأنهار العظيمة التي تخترق المدن .. فيعجبون من صنعة الباري ، ويلحظون التنويع البشـري في ألوان وصور الناس والمخلوقات ، واختلاف الألسن، وكيف يقف الإنسان كالأخرس ليفهم الآخرين بلغة الإشارة .. أو استخدام لغة وسيطة ..ألم يقل الله تعالى : {وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ } [الروم: ٢٢]

٢٧

وبينما الرجل يتنقل في بلدان العالم مع الفريق بحثا عن جديد الأسلحة أخبره ابنه ياسر عبر الاتصال المتواصل بينهم أن أحد الضباط اتصل بالبيت يسأل عنه ويرغب بالحديث معه، فأخبرته أم ياسر بأنه غير موجود ، ولم تحدثه بسفره ، ولما عاود الضابط الاتصال رد عليه ياسر ، ولما علم بأنه مدير البحث الجنائي في عاصمة الدولة أعلمه بسفر الوالد في مهمة عسكرية خارج البلاد .

لما علم شريف بهذا الاتصال من العميد دبور أعلمهم أنه صاحب له ، وأعلمهم أنه سيتحدث معه ، فاتصل بمديرية البحث الجنائي الرقم المعروف لكل مطالع ومهتم ، فهو ينشـر عادة في الصحف المحلية وأدلة الهاتف .. فهو رقم غير سري .. فرد عليه عامل السنترال (المقسم) فطلب العميد دبور بعدما عرف بنفسه ، فلم يرد أحد من مكتبه ، فحول الاتصال لمساعد المدير الذي رحب بالعميد شريف ، وأعلمه أن العميد دبورا في مهمة .. وأنهى الاتصال ووعد باتصال آخر في وضح النهار .

وقد كان على أعضاء اللجنة في الصباح التالي الانتقال إلى بلد جديد لذلك تأخر الاتصال بالعميد دبور بعض الوقت .

وكان الاتصال كما هو معلوم لنا سيكون حول قسيم شقيق شريف ، فبعد التحية والمجاملات التقليدية أخبره العميد أن شقيقه على وشك فتح وإنشاء نادي ليلي ، وأن سفره لأوروبا كان

للتعاقد مع بعض بنات الهوى للعمل في النادي .. وعلم منه أن السيد قسيما سيكون مدير النادي ومعه شريكته نبيلة زوف ، وهي امرأة أجنبية كانت متزوجة من رجل عربي كان يدرس في بلادهم ، ولما عاد عادت معه ، ثم ترملت عنه .. ولما خرج قسيم من السجن زارها عدة مرات .. فهي معرفة قديمة له، ويعرف زوجها قبل جريمته ومكثه في السجن .. وهي امرأة بغي خلاصة الكلام .

فقال شريف : هي إذن ممولة النادي الليلي .

ـ مع احترامي لشخصك الفاضل .. فهي تعيش معه كزوجة أو عشيقة مثل الأجانب الذين نسمع عنهم .

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله ..وماذا سنجني من علاقة شبابنا بالأجانب غير التقليد الأعمى والانحلال ؟!.. أشكرك يا سيدي الكريم على هذه المعلومات التي لا شك أنك تعبت للحصول عليها .. فالنوادي الليلة اليوم من علامات الانفتاح والحداثة في بلادنا .. والخمور اليوم مباحة في أكثر بلاد المسلمين .

ـ نعم يا صديقي.. فالدول اليوم تسمح قوانينها بفتح مثل هذه الأماكن .. والهدف المعلن منها الأجانب ..السياح وسائقو الشاحنات الترانزيت .. ليرفهوا عن أنفسهم ويقضوا شهواتهم الجنسية .. ولكن للأسف أكثر زبائنها من أبناء البلد .. فروادها الشباب الفاسد .

ـ أصبحت بلادنا كسائر دول العالم ..في الترفيه والمجون .. أشكرك أيها الأخ العزيز عندما نعود سأتحدث معك .. وكلي ضيق وألم من رؤية هذا الإنسان وكيف سألاقي قوادا؟! .. مأساة يا سيدي ! كنت آمل إصلاحه وتوبته بعد قضاء أكثر من عشر سنوات في السجن ، مهنة عجيبة في هذه الدنيا.. بيوت دعارة تسمى نوادي ليلية .. أهناك نوادي نهارية ؟!

ـ لو أنك مثلنا في الشرطة لرأيت وسمعت العجب العجاب .. قضايا أخلاقية كثيرة ومرعبة الانحلال يزداد رغم الجهود التي تبذل للتخفيف والتقليل منه ، وليس القضاء عليه ووضع السماعة وهو يتذكر عبير وفوازا وعزميا.

٢٨

عندما تخلى شريف عن السماعة صدم أو شعر بصدمة لهول ما سمع .. أخوه أصبح مدير نادي أو ملهى ليلي .. خمار.. بيت للزنا والخمر.. تمنى لو تبكي عيناه كما يبكي قلبه وهمس : يا للعار!.. يا للخزي!.. أصبح أخي قوادا يدير بيتا للدعارة ..إنا لله وإنا إليه راجعون ..أعلم أن أناسا اليوم في بلاد المسلمين لا يستهجنون ذلك .. ويرون ذلك تجارة ومالا وربحا .. بل هناك أناس تستكثر على الصالحين بناء المساجد والمعابد .. إنما هو التقليد للغرب على قدم وساق ، ولا أحد يمنع ذلك التقليد الأعمى بحجة الحرية الفردية .. بحجة الترويج للسياحة والاقتصاد .. أعلم أننا شعوب غارقة في الاستعمار .. وتنهد بحسرة وعمق وقال لنفسه : وأعلم أن حالنا اليوم لا يسر صديق ولا عدو .. دور البغاء في عرض البلاد وطولها

وعاد يهمس بعد صمت وصفون : الدين اليوم في المعابد فقط .. في المجلات الإسلامية والصحف الإسلامية.. في المعاهد الدينية ومدارس القرآن فقط ..ألا نقرأ في الجرائد قصصا يشيب لها الولدان عن التحلل والفجور ؟! ..لماذا المتغربون الأوائل لم يأتونا بخير الحضارة الأوروبية ؟! .. العلم .. المصانع ..السلاح القوي .. الطائرات .. أشياء كثيرة كان عليهم أن يعتنوا بها ..احضروا لنا الترفيه والسخافة .. وينتشر السفه بقوة وسرعة ..أخي ابن أمي وأبي يحترف البغاء والزنا .. ماذا أقول لأمي ؟!.. ابنك أصبح زعيم ملهى دعارة .. يأخذ راتبه ومصروفه من وراء الفاجرات .. وهذا كسب خبيث .. يا إلهي لو تعلم أمي الشـريفة بهذا الانحدار لقسيم لخرت هالكة .. يا رب أعني على إخفاء هذا الأمر عنها.. تموت خير لها أن ترى ولدها قوادا .. سافر ليجلب بنات هوى لناديه .. لا يوجد في بلادنا غانيات وراقصات وساقطات .. ربما الأجنبيات يجلبن الزبائن أكثر .. لهذا الماخور .. وهذا بالتأكيد ليس أول مكان لمثل هذه القبائح .

يا إلهي .. هل يمكن إصلاح هذا الإنسان ؟ السجن خمسة عشـر عاما لم تردعه عن الفجور وتعيده للدين والإيمان ..هل طبع على قلبه ؟! ..عار لكل العائلة .. وأي عار؟ يا الله .. ليس

لنا خلاص من هذا العار إلا بموته .. بموته ..!! يجب أن يموت هذا الإنسان القذر .. المجرم اللعين.. يموت.. يقتل .. هل نغمس أيدينا بدمه ؟.. لا .. لا .. لا.. إلا القتل .. يقتل الأخ أخاه .. ويح قلبي .. أقول لأمي ابنك أصبح كذا وكذا .. أقول لأولادي عمكم كذا وكذا .. لو كنا في بلاد ضالة .. بلاد لا دين فيها .. لهان الأمر .. فليس بعد الكفر ذنب .. كيف النجاة من هذه الفضيحة ؟ من هذا العار ؟ .. لو كنت من عائلة فواز وعزمي لربما هان الأمر عليّ .. ونظرت إليه نظرة تجارية .. مشروع يدر دخلا .. ولكن هل يقبلون هم مثل هذا العمل ؟ ماذا سيقول عنا أهل البركة ؟!..نحن لا دخل لنا ، نحن ناس أشراف .. وقسيم هجرنا منذ عشرات السنين .. لكنه يبقى أخي.. ولا يهمنا كلام الناس .. ولكن سمعة العائلة ..المهم أمي ماذا سيصيبها لو علمت بمصير ابنها العاق ؟ .. لقد بدأ بتدمير حياته منذ عهد بعيد .. ونحن ضعفاء ماديا نأكل الخبز من إحسان الأغنياء والقادرين ..ألم يكن يرافق الشباب الفاسد إلى مدارس البنات يترصدونهن للعبث ؟!..ويكتب لهن رسائل الحب .. أي حب ؟ الحب الكاذب .. وكان يطير من الفرح عندما تخاطبه فتاة وتسير معه في الشارع .. أو تكتب له رسالة كنا نعتبر ذلك زمن مراهقة .. يومها بدأ فساد قسيم .. نعرف ونسمع أولاد الجيران يتحدثون عنه ونسكت ونعتبر ذلك فعل جهال .. هذا كان أول الفساد .. ولكن ماذا كان بوسع أبي أن يفعل؟ أبي العاجز الضعيف الذي يعيش على الصدقة .. أمي العاملة في بيوت الأغنياء.. ماذا ستصنع لرجل ظن أنه سيد العائلة وحامل مسؤوليتها ؟! .. وأنا .. الابن الصغير .. لا يجوز لي التدخل في حياة الكبير .. عليّ بالصمت.. ألم يتطور الأمر ويعاكس بنات الجيران وبعض بنات الأقارب؟! ..ألم تشكو بعض الأمهات أفعال قسيم لأمي ؟ ويعتذرون بالمراهقة والجهل والصغر وغدا يكبر ويعقل .. فهذه هي نتائج الجهل والمراهقة؟.. ألم يكن داعرا وتزوج من امرأة منحرفة؟.. ألم يتخلَ عن والديه ؟.. ألم يقتل ويسجن ؟.. فالملهى الليلي هو العمل المناسب واللائق به ..

كيف الخلاص ؟! ..الموت.. لا خلاص لنا من هذه الكارثة إلا بالموت .. أعصابنا لا تحتمل

مثل هكذا حياة ..نحن لسنا أبناء أوروبا ..

وبعد لحظات عاد يردد : أنت تكبر الموضوع يا شريف ..ما أنتم طول عمركم لا تسألون عنه.. لماذا أنت مهتم به اليوم ؟.. لماذا أنت مهتم بما يصنع ؟.. ليفعل ما يشاء ..لا داعي أن ترى أمك ابنها العاق.. بعد كل هذه السنين .. فلتمض الحياة كما مضت في السابق ..لا تزر وزارة وزر أخرى أين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟! أين التعاون على البر والتقوى ؟! القضية أعقد من ذلك.. هو قد رفض لقاءنا وهو في زنازين السجن .. سلم أمرك لمولاك وادع لأخيك بالتوبة والهداية والنجاة من عقاب الله .. أيكفي هذا ؟ ماذا ستفعل ؟! ..

أمضى صاحبنا شريف عددا من الليالي مهموم الفكر ، ويعصره الألم والحزن على سقوط أخيه السقوط الذريع في الفجور والرذيلة.. وتتنازعه الأفكار المعتمة شرقا وغربا ، ويقارن في بعض الأحيان بين عادات أهل الشرق وأهل الغرب ..كان منزعجا لوضع أخيه .. كان يأمل أن ينتشله بعد ضياع تلك السنوات .. وأن يجعله إنسانا محترما فاضلا يمشي وهو مرفوع الهامة .. فقال : نحن أبناء حضارة عريقة .. تحرم الفاحشة والفواحش ما ظهر وما بطن .. في بلاد الروس ربما مثل هذه الأعمال تجد قبولا بين بعض فئات المجتمع .. ما الحل للخروج من هذه الورطة ؟ .. لقد تأخرنا في علاج الأخ قسيم .. استفحل الداء .. ماذا كان بوسعي أن أصنع له وأنا الأخ الأصغر.. وأب مشلول وأم ضعيفة تسعى لجلب الدواء لأب جريح ؟.. ماذا تفعل لشاب متمرد ولا يحسب حساب أحد ؟ .. شاب ناقم على المجتمع وعلى الأسرة .. وأنا قصرت كثيرا في البحث عنه .. لقد انتهى من حياتنا هكذا اعتبرناه .. ولولا لقائي بسمير .. ما علمت شيئا عن سجن أخي .. ولو كنا معه في أول القضية ربما وجدنا منه صفحا وندما.. تأخرنا.. لماذا لم يكتب لنا ؟ أو يتصل بنا ؟ ..كان يسير إلى الهاوية ونحن غير مكترثين صممنا آذننا عن سماع أخباره .. لقد كنا مسرورين ببعده عنا وإن لم نصرح بذلك.. علنا كنا نخشى من أعماله الخبيثة وسمعته السيئة .. كنت في مطلع الشباب والاهتمام بأبي ورعايته وأمي الأهم عندي.. نسيت قسيما أثناء قيامي بهذه المهام .. الحل أن نسلم الأمر لله وحده .. كنت أرغب

بأن أساعده للزواج من جديد .. وشراء بيت له ولزوجه .. وكنت أحلم أن أفتح له متجرا قرب بيته الجديد .. محل شريف ونظيف.. عليّ بمقابلته وعرض هذه الأشياء عليه .. نعم عليّ أن أسعى إليه ولكنه صديق لامرأة أجنبية يعيش معها كزوج ..وها هي ستفتح له ماخورا !.. وهذا العمل يستهويه .. عليّ أن أحاول .. أرسل له شخصا شفيعا .. ومن يكون هذا الشفيع بيننا ؟ إني أجهل حياة أخي جهلا تاما .

ومن كثرة الهم والضيق الذي أحاط به من سوء ما سمع عن مهنة أخيه أحس بآلام في صدره مما اضطر اللجنة أن تدخله أحد المستشفيات للمراقبة خوفا من التعرض لجلطة قلبية ..ورغم دخوله المشفى ظل الغم مسيطرا عليه ، بل تدهورت صحته بسبب تفكيره الطويل في القضية ، وترسخ لديه الاعتقاد أنه قصر كثيرا في حق أخيه .. كان عليه أن لا يقاطعه .. ولا يهجره .. والتغافل عنه .. كان يلزمه متابعته رغم زواجه الغريب والشاذ في نظرهم .. وأنه كان ضعيفا وحده أمام أهل تلك المرأة .. وأحس بالندم ولام نفسه .. بل لام أمه.. فقد كان عليها أن تدفعه لإنقاذ أخيه .. فقال صارخا في قلبه : كيف صارت الأمور؟!.. كانت أمي تخشى عليّ الغضب نحوها لكرهي لقسيم .. هل أخطأنا في حقه فعلا ؟ أم أني أضخم القضية ؟.. الظروف التي أحاطت بنا يومذاك جعلتنا نركب رؤوسنا ..وسمعته السيئة جعلتنا نتخلى عنه ونهمله ..

منع الرجل من الاتصال ببلده ، عملوا عليه عزل حتى يسترد الصحة .. فقام الرفاق بالرد على اتصالات الأسرة ..وأخبروهم أنه مريض معلول وطمأنوهم على صحته ..

وبينما شريف يعاني في المستشفى ، وقد ظهرت عليه أعراض الجلطة القلبية .. من الألم الشديد في الصدر .. والتعرق والإجهاد .. فقد أرهقه التفكير أو الندم .



كان هناك في النادي الليلي الذي يديره قسيم وعشيقته زوف تجري السهرات الماجنة ، وتعاقر الخمور حسب رغبات الزبائن والرواد وحسب ما يملكون من مال .. وكان أصحاب اللذة والفسق يترددون ويلجئون إلى هذه الأماكن لقضاء شهواتهم الجنسية ، ويشـربون الخمور .. وبنات الهوى تملأ النادي .. وأغلب رواد الملهى والنادي سائقو الشاحنات الكبيرة الذين يمرون من البلاد في طريقهم لبلادهم فيتركون سيارتهم في أطراف المدينة ويدخلونها للسكر والعربدة .. فقد كان مكان اختيار الملهى قريبا من محطات دخول السيارات الكبيرة .. وكذلك الشباب الفاسد من معارف قسيم يرتادون المكان .. وزوف الروسية بائعة الهوى معروفة لطالبي اللذة قبل لقائها بقسيم.

وذات ليلة جاء طالب هوى ، ودخل إحدى غرف الملهى لقضاء الشهوة .. وقاده أحد خدم الملهى إلى حجرة ليمارس الزنا مع إحدى البغايا ..ولما أضاء الحجرة .. لينظر الفتاة المحظوظ بمضاجعتها هذه الليلة .. طار صوابه وصحا من سكره .. فقد وجد أن الفتاة شقيقته.. وهي صاحت دهشة ورعبا كذلك .. فقال بدون وعي : ماذا تفعلين هنا؟!

ولم ترد عليه وظلت صامتة ؛ لأنها مستغربة لسؤاله في مثل هذا المكان ، فأعاد السؤال صارخا فقالت بوقاحة : الذي تفعله أنت ؟ ماذا يفعل الناس هنا ؟

أدرك أن سؤاله سؤال غبي فعاد يقول : ألك زمان ترددين على هذا الوكر؟

فردت بوقاحة الفاجرات : منذ أن فتحه صاحبك قسيم .

ـ إنك مجرمة !

ـ أتحله لنفسك ولا تحله لي ؟!من أنت لتحاسبني ؟!..أنت وأنا سواء ..

ـ ألم أحذرك من ارتياد مثل هذا الأوكار ؟!

ـ أتنفق عليّ ؟!

ولبست ثيابها ، وحاولت الخروج ، ومنعها قائلا : بيننا حساب ، ودفعها بقوة فوقعت على الأرض وصرخت بأعلى صوتها ، فأسرع فتوات النادي مسرعين للحجرة ، ودفعوا الباب

دون حياء وهم يصيحون : ماذا يجري هنا ؟

وكان الشاب الفاجر يصرخ وفي حالة هياج ، ويضـرب المرأة بكلتا يديه ، فأمسكوا به ، وأخرجوه ، وهم يضربونه بقوة باللكمات والصفعات ، حتى أتاهم المدير قائلا : مالك يا رجل ؟! لماذا تضرب تلك المرأة المسكينة ؟!.. أأنت جئت لتمتع شبابك أم جئت لتعارك النساء ؟

فصاح وهو يعتدل قائما ، وقد توقف الفتوات عن ضربه : يا مجرمون .. يا قسيم يا ملعون .. الملعونة إنها أختي!

ـ أختك يا للهول !.. هذه أختك ؟!

ـ أجل .

ساقه قسيم إلى غرفة خاصة بصحبة فتوات النادي ـ هؤلاء الفتوات يعملون في مثل هذه المواخير لإخراج الزبائن الذين لا يرغب بوجودهم ـ وأخذوا في تهدئته ، وأحضـر له قسيم قنينة خمرة فاخرة على حساب النادي ، وقدم له كأسا وقال : صدق أنني لا أعرف أنها أختك .. فتيات يطلبن العمل فنسمح لهن يا سيدي .. سأطردها وأحذرها من التردد علينا من أجلك ..هدئ أعصابك يا ابن الحلال .. لو كانت هذه أختي لتركتها تفعل ما تشاء ما دامت قد اختارت هذا الكار .. اذهبوا به إلى ... لينسى همه ويجدد نشاطه .

فصاح الشاب وقد أفرغ الشراب الذي قدم له في جوفه : أختي فاجرة .. أنا أختي فاجرة !!

فقال له أحد الشباب : هون عليك .. هي حرة مثلما أنت حر.. امرأة غير سائلة عن شرفها لماذا تغضب نفسك وتزعل ويحمر وجهك عليها ؟ .. هل نحن في جامع ؟!.. نحن في ملهى.. دعك منها وانس ما يسمونه الشرف والغيرة المزعومة.. وها هو المعلم سيطردها من هنا من أجل شواربك .. بس .. لكن دور الدعارة كثيرة يا زعيم ..

فقال قسيم معترضا : هذه ليست بيت دعارة .. يا رجل .. هذه خمارة .. من أجل سواد عيونه انتهى رزقها عندي .

فعاد الرجل يحملق في الوجوه المحدقة به ويقول : أختي زانية !

فقهقهة بعضهم وقال أحدهم : زانية !.. وهي آتية هنا تعمل ماذا ؟! .. تتعبد .. ما هو أنت مثلها ، لا تكبر الموضوع .. ستطرد من هنا وستذهب لنادي آخر .. اشرب كأسك ..ومتع نفسك وانس غيرك .. ها هو المعلم سيخسر فتاة من أجلك .. فحيوا المعلم يا شباب .

فصاح الشاب وهو يقذف الكأس على الأرض بعد أن أفرغها في جوفه : أنا مجرم .. أنا نذل .

فسمع أحدهم يقول متهكما: أأنت لليوم لا تعرف أنك نذل وحقير وحثالة المجتمع ؟! كأنك لم تعرف نفسك لليوم .. فكما تحب أن تتلذذ على بنات الناس .. هناك من سيتلذذ على بناتك لا تكن أنانيا يا عم .

وأخذ السكارى بالقهقهة والضحك العالي ، وأخذوا يقرعون آذانه بالنكت والكلمات الجارحة ، ويتلذذون على مصيبته وذله.. حتى قال المعلم : هي (...) تنتظرك .. انس يا رجل وأخذ الشاب كأسا من أحد الرجال وشربها على جرعة واحدة ، ثم

قذفها على الأرض بقوة مثل السابقة ، وغادر المكان يترنح وساخطا ؛ كأنه يكتشف عهر أخته لأول مرة .. أو أنها تزني أول مرة .. وإنما جاءت لهذا الملهى الليلي بعد أن ملّت من الزنا إذا كان هناك ملال .. بنات الليل يتنقلن من رجل فاسق لآخر من أجل المال .. ورغم وجود الأمراض الجنسية الكثيرة فهن لا يبالين لأنهن استمرأن هذا العمل القذر والتجارة بفروجهن وفي اليوم التالي عاد هذا الشاب إلى النادي ، وسأل عن أخته ، فأخبره المعلم قسيم أنه صرفها ، وطلب منها أن تبحث عن مكان آخر .

ويبدو أن الشاب لم يصدق قسيما ، فأخذ يدخل حجر البغايا حجرة حجرة حتى صاح فيه المعلم : هذه وقاحة وقلة أدب ..أنا ساكت عليك من ليلة أمس .. وأنا راعيت شعورك .. وأنت عامل نفسك شريف .. وأنت تعلم أن هذه الأماكن لا يرتادها الأشراف .. اسمع المحل في خدمتك .. وإلا سأدع الرجال يرمونك في الشارع .

فنظر الرجل إليه لحظات وكان يقف أمامه متحديا .. ونظر إلى زوجة قسيم التي كانت تجلس

خلف طاولة تدخن السيجار .. وكان بعض الرجال يقفون حولهم يتابعون المهزلة كما يقولون.

وابتعد الشاب الناقم خطوات عن المعلم قسيم ، وخلع معطفه وطرحه أرضا وهم ينظرون إليه بدهشة، ولا يدرون لماذا يفعل ذلك؟! .. ولكنهم شاهدوه يخرج رشاشا ويطلقه عليهم قبل أن يدركوا الأمر .. وعلا صوت الرصاص والصـراخ والركض وظل الرجل يطلق الرصاص والصياح حتى انتهى مخزن الرصاص .. ورمى الرشاش على الأرض .. وخطف زجاجة خمر وشربها وهو يقهقهه منتشيا بجريمته .. ثم لبس معطفه وغادر الملهى .. ولكنه عندما وصل مدخل العمارة .. وجد رجال الشرطة على الباب .. والناس وأصحاب المحلات متجمهرين أمام البناية

وهرعت سيارات الإسعاف وسيارات الشـرطة .. واعتقل الرجل الغاضب .. فقد اتصل أصحاب المحلات بهم فور سماع الرصاص في الطابق الثالث حيث يقبع الملهى الليلي .

ونقل الجرحى والقتلى إلى المستشفيات .. واعترف الرجل بجريمته ودوافعه للجريمة .. ولفظ قسيم أنفاسه الأخيرة في المستشفى .. وكان يردد وهو يموت : سامحيني يا أمي !.. سامحيني يا أمي !

هذا ما أخبر به أحد المسعفين المرافقين له أثناء نقله للمستشفى لأولاد السيد شريف .. عندما تحدث معهم العميد دبور ناقلا لهم خبر وفاة عمهم قسيم .. ولما علموا بذلك المصاب أخبروا جدتهم بعدما شعرت بها هم فيه من قلق وحزن .. وقالت بصبر: إنا لله وإنا إليه راجعون .. أريد أن أراه .

وبعد تشاور ذهبوا جميعهم إلى المستشفى الذي يرقد فيه الجثمان .. واستقبلهم الضابط دبور عند المستشفى وقدم لهم العزاء ، وقال لأم شريف : كنت أتمنى أن تريه يا أمي وهو حي .. وكنا نسعى أنا والأخ شريف لذلك ولكن سبق السيف العذل كما يقال .

ـ الأمر لله يا ولدي ..

دخلوا إلى حيث ترقد الجثة قبل تشريحها .. وقبلت الأم ولدها وهي تذرف الدموع الغزيرة وهي تقول : لي أكثر من عشرين سنة أنتظر عودته ورؤيته .. ما أقسى قلبك يا ولدي !! إلى رحمة الله .. إلى رحمة الله

ثم أخذها أحفادها إلى خارج المبنى حيث ينتظرهم صديق والدهم فقال لهم : عظم الله أجركم .. وأنا حاولت الاتصال بوالدكم للمجيء وحضور جنازة أخيه الذي كان يسعى للقائه منذ سنوات وسنوات .. ولكنه بعافية .. ولسوف يصل قريبا .. واطمأنوا عليه أنه بخير قدم الشباب الشكر الجزيل للعميد دبور على جهده معهم ، ودعا لهم الرجل ، وقال : أنا أعتز بصداقة أبيكم .. وهو أخ فاضل وأنا في خدمتكم .

أخذ الطبيب ياسر جدته إلى المستشفى للقيام ببعض الفحوصات ومراقبة قلبها بعد هذه الصدمة ، ووجدها بحالة جيدة ، وبعد ذلك عادوا لمدينة البركة للاستعداد لاستقبال الجثة ليجري تشيعيها حيث تريد الأم حسنة .. فهم لم يروا عمهم حيا منذ ولدوا على هذه الأرض ؛ ولكنهم رأوه ميتا مضرجا بدمائه مقتولا بدم بارد .. لذلك كانوا حائرين .. أيحزنون على العم المجهول أم لا يحزنون؟! هم يسمعون أن لهم عما زعلان من أمه وأخيه .. فحتى جدتهم بعدما غادرت المشفى حيث الجثمان لم تذرف الدمع ولزمت الصمت .. وربما كان حزنهم الحق على الحال التي هلك عليها العم قسيم ياسر .



٢٩

شيع أهالي حي العمال وجيران شريف في الحي الجديد حي الأمل جنازة السيد قسيم ، وهم يتهامسون بقصة مقتله ومكان موته في ملهى ليلي كما نشرتها بعض الصحف ؛ ولكنّ المحبين متألمون لهذه النهاية ولمكان هذه النهاية ، ويقارنون بينه وبين الذي يموت في ساحات الوغى أو ساحات المساجد .

وأقيمت خيمة العزاء في منزل العميد شريف شقيق السيد قسيم ، ولما انتهى العزاء بأيام دخل عليهم الوالد الحزين قادما من سفره ، واحتضن أمه وهو يبكي كالأطفال حزنا وألما ، وانخرطت هي الأخرى بالبكاء مثله ، وعزاها بولدها البكر وقال : حدثني بعض الزملاء بالأمر وعزوني به .. وتلقيت بعض البرقيات من قيادة الجيش وقادة الجيش .. وكنت طريح الفراش في أحد المشافي الأوروبية ..إنا لله وإنا إليه راجعون .. رحمه الله.. تمنيت أن أراه مثلك يا أمي ولو جثة .. سيبقى الأخ الأكبر لي .. إنه أخي رغم ما جنت يداه .. عفا الله عنا وعنه يا أمي .. لم يقدر لك أن تريه حيا .. حتى وهو في السجن كان يرفض استقبالنا .. لقد كانت آخر نظرة إليه يوم زرناه معا في المستشفى وحدث ما حدث .. وكانت النظرة الأخيرة إليه منك أيضا في المستشفى ..سامحينا يا أمي .. غفر الله لأخي ..

واستدار مسلما على زوجته وأولاده ثم قال : قمتم بالواجب وأثلجتم صدري المتعب .. كنت أتمنى لو تعرفتم على أخ أبيكم وهو حي يرزق ، وتصافحوه ؛ لكن كما علمنا النبي ﷺ نقول " قدر الله وما شاء فعل فأن لو تفتح عمل الشيطان .."

وجلس الجميع وقال لهم وهو يتخذ مجلسا : هذه هي الحياة يا أبنائي .. حبوا بعضكم .. الأخوة كنز عظيم .. عندما يتألم الإنسان يقول " آخ " .. كونوا أخوة متحابين .. حسرة العداوة تمزق القلب.. مات العزيز أبي وهو يرغب برؤية قسيم .. هذه هي الدنيا يا أمي .. كنت أسعى سعيا حثيثا إليه.. وأتعبت صديقنا مدير البحث الجنائي في البحث عنه ..ولما اقتربنا منه.. خرج من الدنيا ..أنا متعب من السفر لم تعد الصحة كما كانت .. كدت أصاب

بجلطة ..ووقف ثانية وهو يردد : رحم الله قسيما .. سامحيه يا أمي .. الجاهل عدو نفسه .. كنت أتمنى لو كان عمكم فردا صالحا في المجتمع .. ولكنه اختار درب الشقاء والعصابات .

قالت الأم بحزن وغيظ : وهل يمكنني أن أسامحه يا ولدي ؟! وقد مات ياسر أبوك حزينا مغلولا مقهورا منه .. فكان عندما يفيق من الألم ..ألم يأت الابن العاق ؟! .. ألا يأتي لوداع أبيه في ساعاته الأخيرة ؟ .. ومات المسكين وكله أمل بإلقاء نظرة عليه .. رغم كل التوسلات التي أرسلتها إليه مع أبناء الحارة والجيران ..كان يسيء إليهم ويقول " أنا لا أهل لي .. أنا مقطوع من شجرة ".. ورغم العقوق كله لا أستطيع يا ولدي إلا أن أسامحه.. ولعل قتله كما أخبرتني إحدى الفاضلات كفارة له .. دم تلك المرأة التي كانت تسمى زوجته .. ودم المرأة الأخيرة .. صدقوا يا أولادي منذ سمعت بمقتل زوجته الأولى وأنا ينتابني إحساس بأن ابني سيموت مقتولا .. كان عليه أن يطلقها ولا يغدر بها ..

فقال شريف : كفر عن تلك الجريمة يا أمي خمس عشرة سنة في السجن .. قضاها بين القتلة واللصوص .. سامحك الله يا قسيم .. حاولنا التودد إليك ولكن عجزنا عن الالتقاء بك لإصلاحك وعلاجك .

وبينما هو يواسي أمه ونفسه ليدخل حجرة النوم وضع يده على صدره وقال : انقلوني للمستشفى إنني أحس بتعب شديد في صدري يا أولادي

فقالت حسنة : رحماك يا رب !.. ليس لي سواه بعدك ..

فقال : لا يا أمي ..فهؤلاء كلهم لك .(وكان يشير لأبنائه)

وأدخل مستشفى مدينة البركة ، وخضع للعناية الطبية مرة أخرى ، ثم نقل لمستشفى عسكري ومكث فيه أسبوعا قبل أن يعود للبيت ، ونصحه الطبيب النفسي ألا يفكر كثيرا بأخيه الميت ولكنه قبل أن يصل البيت طلب من أبنائه أن يأخذوه لقبر أخيه .. وبعد تردد وافقوا ومشوا به نحو المقبرة .. ووقف أمام قبر قسيم يناجي أخاه ويدعو له ساعة من الزمان .. ولما خرجوا به من المقبرة .. زار مكتب الزكاة في مدينة البركة ، وقابل مدير المكتب ، وكان بينهما معرفة

قديمة ، فعزاه الرجل ومخبرا له أن ذهب لبيت العزاء ليقوم بالواجب ؛ ولكنه لم يجده ، وعلم من يحيى بأنه مسافر .. فشكره شريف .. وقدم له شيكا بألف دينار توزع عن روح أخيه .. ثم رجعوا للمنزل .. فوجد والد زوجته وبعض أخوة يسرا في انتظاره .. ومكثوا معه وقتا قصيرا هنئوه فيه على سلامته.. وأدخل الرجل غرفة النوم.. وراح في سبات عميق.

ولما تماثل للشفاء التام عاد لمزاولة عمله في قيادة قسم الهندسة العسكرية.. وظل الزملاء يترددون على مكتبه لتعزيته في موت أخيه .. ويهنئونه على سلامته .. وكان من المعزين العميد دبور قائد البحث الجنائي .. وتعانقا كأنهما أصدقاء منذ عهد الطفولة .

وقضى الصاحب شريف أياما يستقبل معارفه من الضباط في التعزية أو يرد على الهاتف من أجل هذه الغاية .. كان محبوبا من الرتب الأعلى منه ومن الأدنى.. ورغم نصيحة الطبيب النفسي له عندما غادر المستشفى العسكري كان يفكر بأخيه كثيرا ويقول : كأنني كنت أدعو على أخي بالموت !.. ألم أتمنى في قرارة نفسي موته عندما علمت بمشروعه الدنيء؟.. لقد قلت لنفسي لا ينقذنا من سيرته القبيحة إلا الموت .. ولكني كنت أتمنى ذلك من القهر والغل وخيبة الأمل .. يا الله اغفر لي هذه الخطرات القاتلة .. اغفر يا رب .. أحيانا يرى الإنسان أن بطن الأرض خير من ظهرها .. ها هي أمي كانت ترى مقتله منذ مشاركته في مقتل من تسمى زوجة .. فعلا لماذا لم يطلقها بدل أن غمس يده بدمها ؟! بل رتب لها كمينا قاتلا وهو يعرف عنف أهلها الإنسان يتصرف تصرفات شاذة غير منطقية وهو لا يدري ألم يكن طلاق الفاجرة خير من مصرعها ؟! الشيطان يلبس على الإنسان فلا يعرف الاختيار المناسب العار لا يغسل إلا بالدم أليس هكذا يقال ؟! الطلاق أسلم وأحسن لضمير الإنسان وهل لهؤلاء العصاة ضمير حي؟! ضمير يؤنبهم لست أدري إنهم يمارسون الشر كالأكل والشرب واللعب وذاك الشاب القاتل هل حقا قتل غيرة وشهامة ؟! وهو الذي كاد أن يقع على أخته ألا يعتبر بنات الناس أخواته ؟! أي منطق هذا ؟! ما الذي دفعه لقتل كل هؤلاء الأبرياء؟ .. وأخته نجت من الملحمة .. وهو سيحكم عليه بالإعدام .. وهي ستمارس مهنتها بكل حرية .

٣٠

هذه الحكاية بدأت بمأساة منذ وقع حجر بناء في مبنى يُشيد على ظهر ياسر سليم أدى إلى شلل نصفي ثم أوصله للموت بعدما انتهى أجله ، وها هي الرواية أشرفت على الانتهاء بمأساة أخرى بمقتل قسيم ياسر بحادث مرعب في نادي ليلي .. هكذا الحياة .. بين فرح وترح .. موت وولادة .. ليل ونهار.. فرح وبؤس.. سعادة وشقاء.. ورأينا قصة نجاح الأخ شريف ومحافظته على أخلاقه رغم الإغراءات والفتن ، ورغم العمل الكبير الذي يعمله والمكان الكبير الذي يشغله .

فالجيوش كما هو معلوم قديما وحديثا من أهم المؤسسات في كل وطن وكل بلد .. ورجالها محظوظون ومحترمون عند الغني والفقير.. والأخ شريف حقق كل غايات الدنيا المهمة .. البيت.. الزوجة.. الأولاد .. المال .. والجاه المركز الكبير في جيش بلاده .. والأهم عنده أنه حافظ على شخصيته وكيانه من الذوبان في حمى التقليد الأعمى ، والركض حول كسب الثروات من أي مصدر كان .. من نصب واحتيال.. لقد قنع بدخله وراتبه الوظيفي.. واعتبره كافيا ومؤديا للغرض الدنيوي .. من حياة بسيطة .. وهدوء وسكون .. وهو موقن أن الحياة لا تخلوا من منغصات .. والصحة لا تدوم وأن الضعف سيصيب الإنسان مهما أوتي من قوة ، والسن له دوره .. ألم يقرأ في كتاب الله ﷻ { اللهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ } الروم: ٥٤

والتعب والمجاهدات التي أصابته أثناء الدورات والتدريبات والمناورات العسكرية تركت بصماتها على بدنه .. وما أصاب والده لابد أنه ترك شيئا على روحه ونفسه.. وها هو آلمه ما صنع أخوه قسيم وأضعف قلبه.. فلذلك قدم طلب إحالة على التقاعد وإنهاء خدماته من القوات العسكرية .. التقاعد من الجيش الوطني .. ولقد كان القائد العام للجيش قد اطلع على تقاريره الطبية فوافق على تقاعده بعد نظر اللجنة الطبية العسكرية عليه .. وبينما هو ينتظر تقارير اللجان الطبية التي أجرت عليه الفحوص المناسبة تخرج ولده ياسر من كلية الطب

والتحق بالعمل في مستشفيات الدولة ليأخذ بعض الخبرة .. وفرح شريف بولده ياسر الذي سماه على اسم أبيه.. وهذا شيء مهم في حياة أسرة مكافحة .. أسرة خرجت من العدم والضعف والفقر .. وقد ذكرنا آنفا أن السيد يحيى تخرج من كلية الآداب متخصصا باللغة الفرنسية ، وقد انهالت عليه عروض العمل سواء في المؤسسات الإعلامية كالتلفزيون القومي حيث يعمل شقيق أمه في قسم البرامج الفرنسية ..أو الصحف الأجنبية في البلد .. أو شركات الترجمة .. ولكنه فضل السفر إلى فرنسا للدراسة على نفقة الجامعة التي تخرج منها ليدرس الدراسات العليا ثم يعمل في الجامعة محاضرا وأكاديميا .. ولكنه أجل الابتعاث حتى ينتهي شقيقه الأكبر من كلية الطب.

وأما الشاب الثالث محمد فهو ما زال على مقاعد كلية الهندسة ليكون مهندسا كأبيه .. هؤلاء فقط الذين أنجبهم السيد شريف ..

كانت الحجة حسنة سعيدة بأحفادها وسرت بنجاح سمي زوجها بالاسم .. وقالت وهي تعانقه فرحا : لو قدر الله لجدك ياسر الحياة لمثل هذا اليوم لمات من الفرح .. وافتخر بكم كما كان يفتخر أمام أقاربه بأبيكم شريف .. عاش المسكين قبل أن يكبر والدكم حياة الشقاء والبؤس .. ولكن الله عوضنا بكم خير العوض .. الآن عليك بالزواج يا ولدي ليكتمل فرحنا بكم ، ويسعد أبوكم برؤية أحفاده بعد كل هذا الجهاد .. ولخالك حسان ابنة رائعة الحسن والأدب .

ضحك ياسر وقال : هذه العروس جاهزة يا جدتي الغالية!.. هذا كله بدعائك وحبك لنا .. أنت جدة وأم عظيمة .

فقال شريف الذي كان يسمع أمه وهي تهنئ حفيدها الأول : يا ياسر .. من رأيي أن تحقق رغبة جدتك لتكمل فرحتها برؤية أولادك ..وأعتقد أن هذا رأي أمك .

فقالت الأم يسرا : هذا مناي يا أبا ياسر .. ونحن أنا وأمك من زمن قلنا له عن ابنة خاله حسان ..

ابتسم وقال ياسر : عندما أباشر العمل ـ إن شاء الله ـ سأحقق لكم هذه الرغبة .

فقال شريف : أنت باشر العمل ، ونحن سنباشر السعي في ذلك ، ربما يعتذر خالك أو البنت لا تريدك .

وأظهرت تقارير اللجان الطبية التي عقدت للضابط شريف ياسر سليم أنه بإمكانه مزاولة عمله والاستمرار فيه ، وهو يعاني من مشاكل في عضلة القلب ؛ ولكن بالعقاقير المناسبة يمكنه العمل لعدة سنوات داخل وحدات الجيش ، وأن لا يتعاطى التدخين والكحول ، وهو لم يعرف التدخين خلال كل سنين العمر التي مضت ، وأما الخمر فهو مبغض لها ، ولمن يشربها ولم يحاول شربها ولو مرة واحدة .. فتم نقله إلى كلية تدريب الضباط لإلقاء المحاضرات على الطلبة العسكريين .. وأثناء عمله في كلية الأركان رفع إلى رتبة لواء ركن ، ولم يمكث عاملا بهذه الرتبة سوى سنة واحدة ثم أحيل على التقاعد ، وكان يعمل آمرا للكلية عندما صدر كتاب تقاعده بعد خدمة تزيد عن الثلاثين سنة في وحدات القوات العسكرية في بلده .

وكان قبل تقاعده واعتزاله الجيش زوج ابنه يحيى من ابنة أحد زملائه القدامى الذين تخرجوا معه من كلية الهندسة العسكرية.. التقى به محاضرا

مثله في الكلية، وعادت بينهما العلاقات الخاصة ، وخاصة عندما تعاونا على تأليف كتاب يدرس في الكلية ..ونتيجة الزيارات العائلية كان زواج الشاب يحيى الذي يدرس في باريس من ابنة الزميل حماد .. وأصبح عندهم في البناية التي كبرت زوجتان .. ودخلت عليهم الأفراح والمسرات برؤية الجدة حسنة أبناء أحفادها، وأنستهم هذه المسرات مأساة عمهم قسيم .. ولما كانت زوجة يحيى تضع مولودها الأول كان صاحبنا شريف يغادر الكلية العسكرية متقاعدا عن العمل بعد قضاء زهرة شبابه بين وحدات وسرايا وكتائب وألوية وفرق الجيش .. وما عليه إلا أن يقوم بتبرئة ذمته من مؤسسات الجيش المختلفة ليحصل على راتبه الشهري التقاعدي .. ويجلس في بيته طالبا للسكون والهدوء وملاعبة الأطفال ومداعبتهم .. والحديث مع أمه التي بلغت من الكبر عتيا ، ولا تكاد تفارق حجرتها إلا

للذهاب للحمام .. فهي أصبحت تأكل طعامها في حجرتها ..حتى أن شريفا أحضر خادمة خاصة بها غير الخادمة التي تعمل في البيت .. وكان أحفادها عندما يعودون للبيت يكون دخولهم عليها والسلام عليها أول أعمالهم في البيت ، ثم الانصراف لرؤية أمهم وأبيهم ، ثم يصعدون لبيوتهم الخاصة بهم .. وإلى هنا نقف في حكاية السيد شريف ياسر الكمن .

جمال شاهين



الشفق

السوداء

تلاقت العيون الأربعة في المقهى الذهبي، وبعد شهور من النظرات تلاقت القلوب، فعرف أن الرجل يبحث عن رجل التقى به قبل ثلاثين سنة في هذا المقهى، وابتاع منه صورة مهينة لزوجته صورة عارية.

فحدثت حوارات وتحقيقات واعترافات عن الشفق السوداء.. فكسب الكاتب الهاوي من روايتها أكثر من ربع مليون، وزوجة غنية.. وهذا يؤكد غرائب الدنيا وأخبارها.

حي ابو خروف

هوايتي قراءة الكتب والقصص ، دخلت الحي المعروف بأبي خروف ، وخُبرت ان عدة مآسي جرت أهم أحداثها في هذا الحي ، فسمعت منها الكثير أثناء عيشي فيه ، وانتقيت لك عشر منها ، وراعيت سنواتها ، وتركت الكثير ؛ ربما نتحدث عنها إذا تيسر الأمر بمشيئة الله وحده.

ولا يعني هذا الكلام عن مآسي البشر أنه لم تكن هناك قصص نجاح وسعادة ؛ بل هي الكثرة الغالبة.

وكما عُلمنا السعيد من اتعظ بغيره ، والشقي من اتعظ بنفسه، وقد قرأنا في الكتاب العظيم ما أصاب عاد وثمود ومدين وسدوم.

لعلك تستمتع ، وتحمد ربك وتشكره ببعد الشقاء عنك عندما ترى مآسي البشر ، وضعفهم عندما يبتعدون عن الصراط السوي، ويسيرون وينغمسون مع شهواتهم وملذاتهم دون عقل وضابط وخلق ودين .

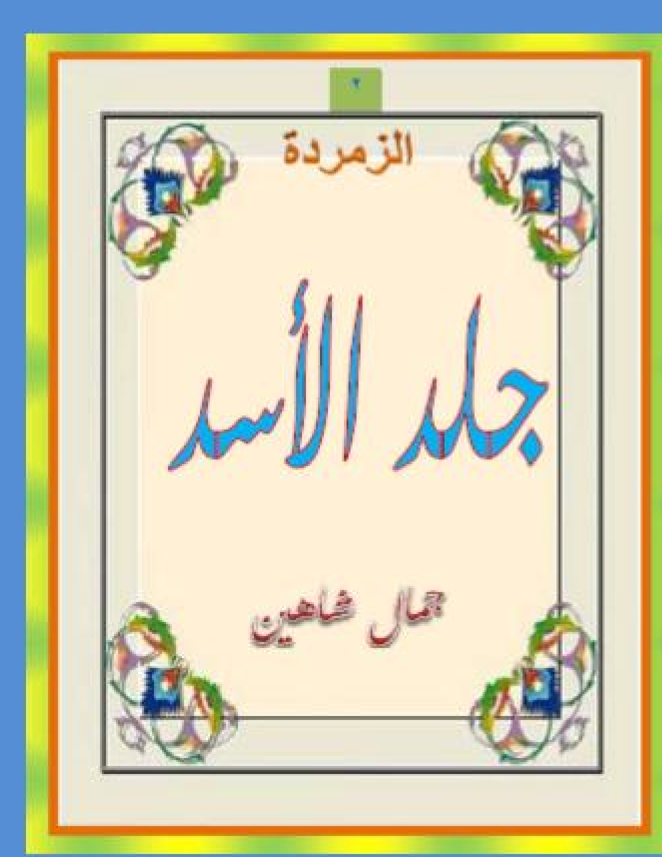
المحب لكم جمال

جمال شاهين

ليلة عرس



المكتبة الخاصة


٢
الزمردة
جلد الأسد
جمال شاهين


غسان والمدينة
مكر قديم
أحلام الأولاد
أسعد وأسود
ثلاثة أبناء
ربيعة والسلطان
نبوءة سيف
عقيل والصياد
الصياد البحري هارون



مسبحة اللولو

اختفت مسبحة نادرة وثمينة من خزانة سرية .

كيف اختفت ؟ لا أحد يدري الحيلة

لم يقف الأمر ها هنا ، بل صاحب المسبحة اختفى أيضا

الشرطة في حيرة ، والأسرة والأصدقاء في حيرة !

كان الرجل في رحلة قطار متكررة بين سنة وأخرى

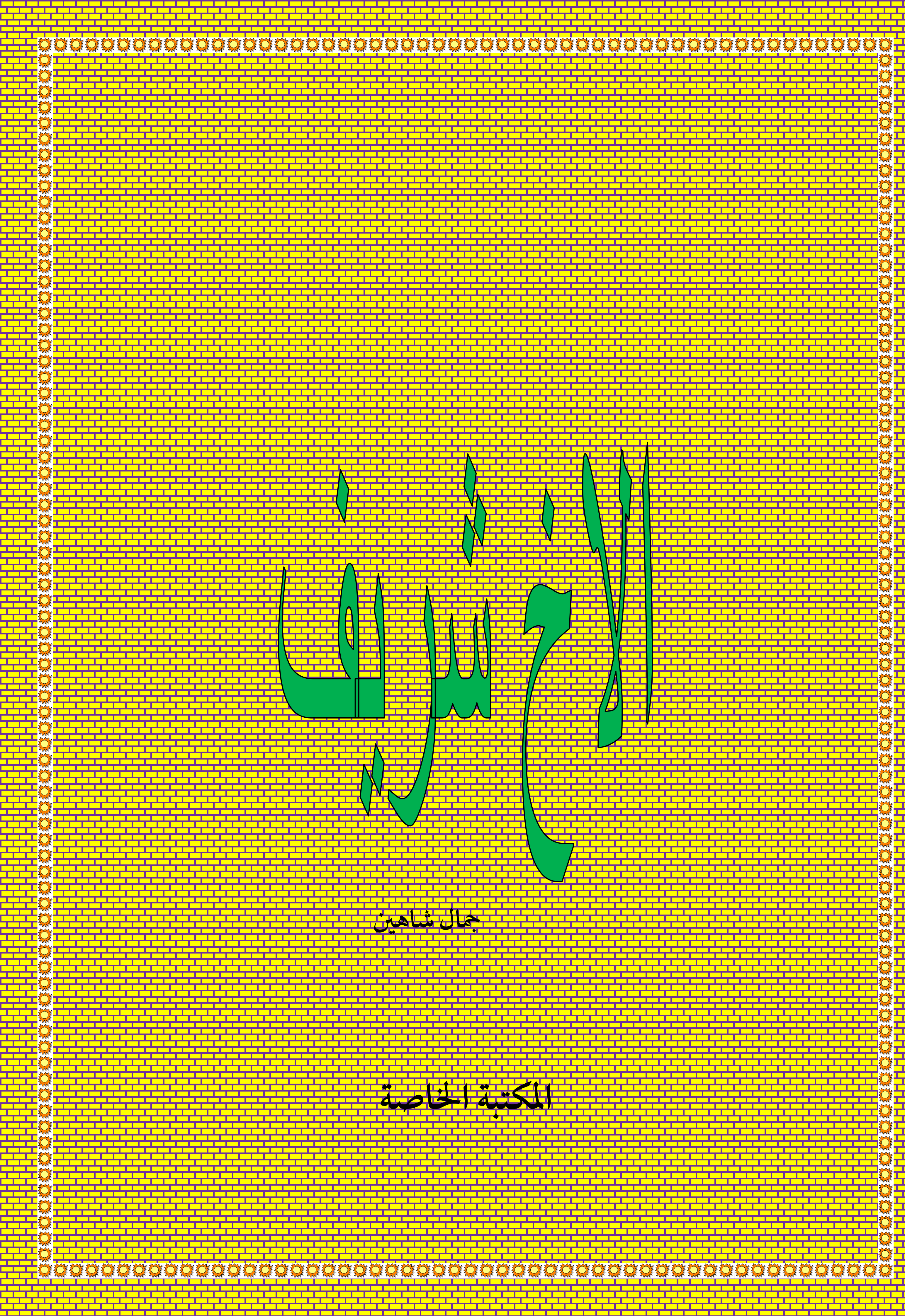
لم يصل الرجل إلى الفندق كما هو مرسوم

أين المسبحة ؟ أين الرجل ؟!

أجوبة كل هذه الاستفهامات ستجدها حين تقرأ هذه القصة

عالم الجريمة المدبرة عالم غامض!

ولكن النهاية حتمية بالنسبة للجاني !!


الاحتراف
جمال شاهين
المكتبة الخاصة